الحكم الظالم

محمد علوان

UTL AT DOWNSVIEW
D RANGE BAY SHLF POS ITEM C
39 09 05 08 04 009 0

PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

BRIEF
BR
0008201

Digitized by the Internet Archive
in 2010 with funding from
University of Toronto

http://www.archive.org/details/alukmallimmindwn00bayr

الحكم الظالم

من

ديوان التفتيش الصارم

ناني ساعة فيها يظن كل من يقتلكم انهُ
يقدم خدمةً لله يو ١٦ : ٢

بيروت سنة ١٨٧٤

اصل ديوان التفتيش واول انشائهِ

انهُ بين البراهين الكثيرة الداحضة رسولية الكنيسة الرومانية ليس اقطع من حبها سفك الدم الظاهر في كل تاريخها فانها باضطهادها المكرر وحروبها الدموية وتخريبها بلادًا الى الدمار قد خالفت كل مبادي الانسانية بل ضادَّت الى التمام روح الانجيل فاوقعت الظن بان الالتجاء الى وسائط مثل هذه للحماية عن نفسها انما صدر عن شعورها السري بعدم صحة اركانها. والمقصود في الصحائف الآتية انما هو ايضاح عمل من اعمال تلك الكنيسة خالٍ من نور الديانة المسيحية ومن محبتها والتعويض عنها بحكم مطلق مبني على قاعدة اشر احكام العالم وهو حكم يعذّب الجسد اشدّ العذاب ويمزّق القلب كل التمزّق ويجمع بين سوء الظن والغيرة ونزع حق رفع الدعوى واقصى الجفاء فهو اذ ذاك اقرب الى عبادة مولك والى الديانة التي نامر بتقدمة البشر ذبائح مما هي الى تلك التي تنادي بالرحمة للجميع التي انت ليس لكي تهلك الناس بل لتخلصهم

انهُ عند ختام الجيل الحادي عشر كانت قد ارتقت الكنيسة الرومانية الى قمة عظمتها وادَّعت اساقفة رومية ولاسيما غريغوريوس السابع بالسلطة على كل ملوك النصرانية وامرائها في القضايا الزمنية والروحية فمن ثمَّ كان التسليم بسلطة كهذه خلوًا من مكابدة مشقات ومجاهدات عظيمة من الامور المستحيلة. غير ان مجرد هذه الدعوى كانت كسيل جارف اذ جلبت وراءها شرورًا لا تكاد تحصى لان ادعاء الاكليروس والرذائل التي اشتهروا بها ومداخلاتهم المتواصلة في الامور الزمنية وضرائبهم الباهظة وخرافاتهم العديمة التصديق وجهلهم الصريح وعدم اكتراثهم بما كان يظنهُ العموم من

نحوهم اعانت على الاتيان بنفور روحي شديد في ممالك اوروبا قاطبة لم يكن محتاجاً الاّ الى قدح الزناد حتى يشتعل متوقداً كبركان ناري . فعلى هذا كنت تسمع بلسان الحال صوت الانذار هاتفاً من كل فج عميق متهدداً بمداهمة جيوش الرزايا حتى آل الامر من جرى تراكم تلك التاثرات والانفعالات الصادرة ضد تلك الكنيسه لان تحرك بها دواعي الاضطهاد حسماً لذلك النفور اما هذا الاضطهاد فقد ضمّ قلوب تلاميذ المخلص بربط المحبة المسيحية معلماً اياهم كيفية السلوك للتخلص من تلك القيود الثقيلة معدّاً السبيل للتاكيد الكلي بالحرية الروحية القائم بها اعظم بركات هذه الاعصر المتاخرة

اننا قلما نحتاج لان نتكلم عن اول انحراف الكنيسة المسيحية عن بساطتها الاصلية وابتدائها باتخاذ اضاليل مهلكة وذلك نظير عبادة العذراء والوقار الخرافي المتجه نحو البرشان المقدس الذي تحوّل اخيراً الى التعليم بالاستحالة وممارسة الاعتراف السري وقصص العجائب والمعجزات والاثواب المزخرفة والشموع المتقدة والاحتفالات الطويلة والمجامر البخورية والتقشفات والرياضات المنطوية على تعذيب النفس وقهرها والماء المقدس وعيشة الادبرة المبنية على التوحد والعزلة والتصريح بفاعلية الذخائر المقدسة وخدمة القداس وعدم زواج الاكليروس الخ فهذه الاشياء وما اشبهها من الشرور كانت قد ازدادت وتراكمت في قلب تلك الكنيسة المسماة بالمسيحية الى ان صارت الديانة ضبابة تكاد تكون ظلاماً دامساً يحجب انوار الحق ويعتم المراكز الاصلية التي لولاهُ لكانت من مصادر التقدم والنجاح وليس ذلك فقط بل قد عظم المواد الطفيفة تعظيماً مهولاً طارحاً الحقائق الانجيلية في غمر عديم القرار تعلوهُ جبال التقاليد الشامخة وسحب التعاليم البشرية

ان الفصل الاول من التاريخ الانجيلي ابتدا بالصوت الحقير في اعين البشر الذي نادى بهِ يوحنا في القفر فكذلك عندما سقطت الكنيسة المدعية بالمسيحية من تقواها وطهارتها الاصلية سقوطاً مهولاً جالبة على نفسها

العار والفضيحة بواسطة سوء تصرف رؤسائها واطماعهم لم يكن العالم خالياً من جمهور صغير امين كالسبعة الالاف من بني اسرائيل الذين لم يحنوا ركبة لبعل في ايام ايليا نهض مشخصاً بساطة وتقوى التلاميذ الاولين واستمر محافظاً على تعاليم الانجيل الصافية فيما بين اولئك المردة العتاة اعداء الحق مجاهداً ضد كل ظلم وتعدٍ ببسالة لا مزيد عليها . اما الشعب الموما اليهِ فهو الولدنسيون وهو طائفة يلذ الاستماع عن اخبارها لانها كانت سابقة لاعداد الاصلاح الاخير والبرزخ الروحي الرابط البروتستانتية بالمسيحية وباكورة من تجاسر في الاوقات الحديثة على قطع اشواك التعاليم الفاسدة من النصرانية الكاذبة . وقد اقامت العناية شخصاً امينا ممتازاً يدعى بطرس والدوس ولد في ليون ونبغ عند خدام الجيل الثاني عشر للقيام بترجمة بعض اقسام من الكتب المقدسة الى اللغة الدارجة وما ذلك الا لمشاهدتهِ ما كان محدقاً بهِ من الفساد وانحصارهِ من جرى ذلك ومع انهُ كان اصلاً من العوام نظم حولهُ كنيسة قام بها واعظاً وشارحاً . وقد اتحد اخيراً مع جماعة والدوس هذه الصغيرة جمهور اخر من انصار الحق الامناء من ذرية البوليشيين القدماء القاطنين في وديان يبيدمون يعرفون باسم فودوا في اللغة الفرنساوية وولدنسيين في اللاتينية وڤالبين في الانكليزية على ان الاسماء المذكورة قد تخصصت اخيراً بالجماعتين المتحدتين . فانتشى هولاء المسيحيون الافاضل على الاخلاق والملبوسات المتناهيه في البساطة متنزهين عن الطمع بالغنى العالمي ورافضين جميع الوسائط المبنية على الغدر والخيانة بالنظر للحصول على الارباح محافظين على غاية القناعة والعفة ومنكرين انفسهم بكل ممو ادبي معتزلين حتى من شبه التمتعات التي من شانها ان تماثلهم بجيرانهم الاشرار . اما الذين تعاطوا منهم التجارة بالاسفار فاغتنموا كل الفرص المناسبة لارشاد من تعاطى معهم الى تعاليم الديانة الحقيقية لا يالون جهداً بايضاح الحق على اسلوب يضاد فساد ديانة جيلهم وبطلانها مضادة على غاية من البيان والتاثير

انهُ لامر مسلم انهم لم يدَّعوا بالعصمة ولم يكن تفسيرهم للكتب المقدسة خالياً من بعض النقص والهفوات الا انهم مع ذلك كانوا مصلحين روحيين حقيقيين مشهرين للعيان المبادي الاصلية المميزة لعصر لوثيروس واتباعهِ وان كان ذلك في عصر يفوق ظلمة على ذاك . وقد تسمى فرع من هولاء المسيحيين الاولين بالانبجنسيين ربما قد اتخذوا هذا الاسم من البي وهي مدينة في الانكليدوك فحيث ان الفساد والافتراء لا ينفكان عن الاتحاد انهم اعداوهم بكل نوع من الذنوب التي يمكن للطبيعة البشرية ان تمارسها وذلك كنكران الالوهية والتجديف وعبادة الهين وبكل نوع من الضلال وبالازدراء الفائق الوصف بالاشياء المقدسة جميعها . اما اثمهم الحقيقي في اعين المشتكين عليهم فلم يكن سوى طهارة حياتهم الفائقة والمقاومة التي ابدوها نحو الاعمال والعقائد الفاسدة الممارسة من الكنيسة الرومانية . ومن ثمَّ كانت الباباوية بمعزل عن الامان من نشر هذه التعاليم الصافية واستعمال الحرية باذاعتها فاتحد اذ ذاك الترفض الاعمى والصالح العالمي على تحريض انصار كنيسة ذاك العصر لاجل توقيف تقدُّم هذه التعاليم المخطرة على رواج بضاعة خزعبلاتها . ان عملاً كهذا لم يكن بدون سابق في تاريخ الكنيسة لان اضطهاد المسيحيين الاولين وان كان حصل الشروع بهِ من الوثنيين فقد تسبب كثيراً عن الطائفة العبرانية مع انها قد رات بالاختبار بعد فوات الوقت انها باشتكائها على المسيحيين انما كانت آخذةً بايجاد الات هلاك لنفسها

ان مناشير قسطنطين امرت بقصاصهم بالنار وشرائع تاودسيوس التابعة حكمت باستعمال الفاحصين والمفتشين والقديس اوغسطينوس نفسهُ قد صرَّح باراء من شانها ان تناسب الاضطهاد . اما سلطة الباباوات ودعاويهم العريضة فلم تقم بسوى المقاومة الصارمة للتعاليم المحسوبة منهم مبتدعة فلم يكن يظن والحالة هذه انهُ يسمح للانبجنسيين بالفرار من القساوة البيعية في عصر مظلم كذاك . فالوعظ الذي نودي

به وقتئذٍ لاجل الحروب الصليبية واثار اكثر اهالي اوروبا للقيام باخذ الثار وارجعها منكصةً على الاعقاب اتجه حينئذٍ نحو هولاء المسيحيين الافاضل وحينئذٍ تصوَّبت نحوهم تلك الاسلحة المشحوذة ضد العرب مخترقةً لها سبيلاً لابادة تلك التعاليم الفائقة اخطارها بالنظر للدعاوي الباباوية على الفتوحات العربية

فمن ثمَّ جمع البابا اسكندر الثالث الذي كان وقتئذٍ منفياً من رومية في سنة ١١٦٢ في طورس مجمعاً مولفاً من اكليريكيين وعوام ملتئمين من جهات عديدة في انكليترا وفرنسا لاجل تدبير الوسائل الآيلة الى ابادة البدع . فكانت التدابير التي قرَّ عليها القرار بهذا الاجتماع فعالة وشديدة وهي انهُ ينبغي ان تحصل المراقبة على المبتدعين والاشتكاء عليهم وقطعهم عن ملذات الحياة لاجل خير نفوسهم وتحريم الاخذ والعطا معهم تحريماً كلياً ثم صار اجراء القصاصات المذكورة مصحوبة بالحرم الدارج وقتئذٍ كثيراً الذي كان يخشى من عواقبهِ الزمنية اكثر من الروحية . ثم ولي الاحكام المشار اليها مجامع عمومية اخرى منها المجمع الذي التئم في كنيسة لاتيران في رومية وهو المجمع اللاتيراني الرابع وغيرهُ في ڤيرونا فهذه المجامع سنت شرائع ضد البدع الجديدة ورتبت عقوبات لتابعيها واتحدت السلطة البيعية مع السياسية على تدميرها ثم تسلم الاساقفة القانونيون القيام باجراء هذه الاوامر وطلب منهم تنظيم محاكم اصولية لاجل اكتشاف المبتدعين بحسب ظنهم وقصاصهم اما الكنيسة فكان من واجبها الحكم على الذنب واما الحكام السياسيون فالقيام بتنفيذ القصاص فعلى هذا تدونت رسوم النظام المزمع الاولية وحصلت المصادقة عليها ولم يبقَ سوى ان يضاف عليها التفاصيل التي من شانها ان تطلبها الاحتياجات العتيدة . ثم قد تحقق فيما بعد ان تسليم مامورية كهذه وهي قصاص المبتدعين الى اساقفة الابرشيات المختلفة بمعزل عن المناسبة لانهُ كان من شان هولاء الروساء الروحيين مراعاة صوالحهم الشخصية

ومجاراة الاراء العامة المتغلبة في ابرشياتهم اما خضوعهم للحبر الروماني فلم يكن دايماً سليماً من الشبهة فاختلف والحالة هذه اجراء تلك الاوامر بحسب صفة شخص الاسقف ومركزهِ ثم انهُ فضلاً عن ذلك قد اكتشفت رومية بعد قليل من الزمان اهمية مراقبة هولاء الاساقفة حافظي الايمان انفسهم وحينئذٍ شرع البابا اينوسان الثالث بتمكين مفاعيل تلك المناشير

ثم انهُ في سنة ١١٩٨ امر البابا بطرس من كاستلينو وارنولد رئيس دير سيتو واخاهُ رالف وجميعهم من الرهبان السيستربشيين بالكرازة ضد الالبيجنسيين عازماً على تجريب مفاعيل الوسائل اللطيفة قبل التقدم الى الوسائط الصارمة ثم اننا نستنتج من اخبار البابا وبين المتناقضة ان ان اجراآت المذكورين والمساعي البابا وية لم تاتِ الا بقليل من النجاح ومن ثمَّ لم تلبث حتى تحوَّلت تلك المعاملة اللينة الى القساوة. اما بطرس الموما اليهِ فهلك في هياج تسبب عن روحهِ المضطهدة فبادر البابا لتعيينهِ قديساً متحركاً من حادثة موتهِ لاتخاذ الوسائل الفائقة صرامتها ما تقدم ثم في الوقت نفسهِ كان سمعان مونتفورت في مقدمة جيوش المضطهدين مجتهداً بواسطة الاتونات النارية والصوارم الفتاكة على القاء الرعب في قلوب الشعب واجتذابهم الى الكنيسة الرومانية . فجمع البابا اينوسان الموما اليهِ اذ ذاك المجمع اللاتيراني الرابع واشترك في هذا الاجتماع شخصان اشتهر اسم احدهما في تاريخ ترفض رهبنة رومية وتفتيشها. اما اولهما فهو فولك اسقف طولوز من كانت ابرشيتهُ في قلب التعاليم الالبيجنسية المشار اليها واما الثاني فمن اتباع فولك يسمى دومينيك دوكزمان ولد سنة ١١٨٠ في مدينة كارا لوغا في كاستيل الاصلية متناسلاً من عائلة قديمة وقد كان حينئذٍ في عنفوان شبابهِ ومن اعز انصار رئيسه فاسمهُ الذي كان اصلاً شريفاً صار يضرب بهِ المثل بالاغتيال والقساوة وحق لهُ ان يدعى قائد زبانية الجحيم . قيل ان امهُ رات قبل ولادتهِ حلماً بانها صارت والدة شبل

حاملاً مشعلاً متقدًا العلم العالم اجمع فطابق الحلم المذكور صفاته واعماله كل المطابقة لانهُ كان ركنًا عظيمًا للشرور البابا وية وجرثومة لما لايحصي من الويلات وقد كان المومأ اليهِ وقتئذٍ مناهزًا السنة الرابعة عشرة من حياتهِ حائزًا امتيازًا خصوصيًا بالنظر لما كان يتظاهر بهِ من التدين ثم درس في مدرسة سالامانكا الكلية ولم يصل الى السنة الحادية والعشرين من حياتهِ الاوحاز شهرة سامية بالنظر للغير والحمية الدينية ثم تعين في سنة ١١٩٨ قسيسًا على كنيسة اوزما الكبرى ورافق اسقفهُ بعد قليل من الزمان لزيارة اقليم لانكيدوك حيث كان الابجنسيون يكرزون فاذ كان في هذا المكان سعى بتحصيل رخصة من البابا لاجل ابادة المبتدعين ففاز بالمرغوب متفقًا مع اهل ابرشيتهِ والسيستريشيين على ذلك . هذا وقد نسبت اعوان الكنيسة الرومانية الى تاريخ دومينيكوس قصصًا خرافية تضاد الحق الصريح كل المضادة منها ان المومأ اليهِ دوَّن تفسيرًا للعقائد الرومانية الكاثوليكية ثم دفع القضايا المشار اليها الى المبتدعين لكي يفحموها ان امكن فبعد ان فحصها الابجسنيون القوها في اللهيب الاَّ انها لم تحترق ثم تكرر العمل نفسهُ في نادٍ عمومي حيث التام في جدال عظيم جمهور غفير من الاكليريكيين وطرحت الاوراق المذكورة في النار ثلاث مرات فلم تؤثر بها قوة اللهيب بتة . ان خزانة اكاذيب الكنيسة الرومانية لاتعجز عن ايجاد اختراعات كهذه لتمجيد انصارها العتاة المترفضين وتوطيد دعاويها التي هي اوهى من بيت العنكبوت على ان النار في ايام لوثيروس وجدت اشد فاعلية مما كانت عليهِ في الحادثة المذكورة لانها انشبت لسانها في الاوراق البابا وية المطروحة بها الى ان صيرتها رمادًا . اما البابا اينوشنتيوس الثالث فوجد صفات هذا الانسان على غاية من الملايمة لمقاصدهِ المنطوية على البغي والعدوان فترحب بهِ الى المجمع اللاتيراني المذكور انفًا اذ كان اتيًا صحبة اسقف طولوز فالتمس دومينيك المومأ اليهِ بلجاجة الرخصة بتاسيس رتبة جديدة من الرهبان اما المجمع فكان قد قرر ايهُ على اصلاح

الرتب الموجودة وقتئذٍ دون زيادة رتب اخرى فلم يكن والحالة هذه الالتماس المذكور خالياً من الموانع . غير ان الحيل لا تسد دون جنود الشر ابوابها فاستعمل البابا واعوانهُ اذ ذاك وسيلةً مكرية لحل هذا المشكل وهي انهُ عوَّض عن اسماء الرتب الشائعة الاكرامية المتميز بها الرتب الاخرى باسماء روساء قانونيين . ثم لم يمر قليل من الزمان حتى توفي البابا اينوشنتيوس المومأ اليهِ فاصدر خليفتهُ هونوريوس الثالث مناشير تعلن بتاسيس رتبتي الرهبان الفرنسيسكانيين والدومينيكانيين الاولى بحسب شرائع دومينيكوس موسسها والثانية تحت ادارة فرنسيس دواسيسا اما واجباتهما الخاصة فالوعظ ضد المبتدعين واستئصال كل تعليم مخالف للكنيسة الرومانية وقد تعين الدومينيكيون على اقاليم بيرينيز الواطية والفرنسيسكانيون على وديان ايطاليا . ثم ارسل هولاء الرهبان المدعون بالفقر الاختياري متسلحين باوامر باباوية توصيهم بفحص عقائد المبتدعين وعددهم ومراقبة الوسائل المصطلح عليها من الاساقفة لاجل المحافظة على تعاليم رومية ومن ثمَّ دُعوا فاحصين او مفتشين (وكان الاولى ان يدعوا اخوة الشياطين) وقد منح البابا هذا الاسم اولاً الى دومينيك المشار اليهِ

ان من يتامل بعاين ان موسسي الفرق المختلفة قد تخلد ذكر صفاتهم على صفحات التدابير والاجراآت المتولدة من محركات مبادیهم الاصلية ومن جملة الادلة على ذلك ديوان التفتيش الموسس على تلك الاصول الجهنمية النابعة من قلب دومينيك الذي كان ثملاً من خمور تلك الزانية الجالسة على الوحش وقد كان المومأ اليهِ من المترفضين العتاة متميزاً حسب شهادة كمبجيوس بالصرامة التي مارسها لتوقيف تقدم التعاليم المحسوبة عندهم مبتدعة لان رسائلهُ نفسها التي اشهرها باراموس تدل على معاطاتهِ هذه الوظيفة بعزم دونهُ صلد الصخور مصمماً بواسطة العنف والقساوة بمقاصة المذنبين على تخويف الاخرين وترجيعهم عن عقائدهم المنحرفة (حسب زعمهم) . فلما عينتهُ الاوامر الباباوية برز في كنيسة القديس

پروليان في وسط محفل حافل معلناً في عظة وعظها في ذاك الوقت عزمهُ على المحاماة عن تعاليم الايمان باشد القوة وانهُ ان لم تكن الاسلحة الروحية والبيعية فعالة لهذه الغاية فيستدعي الاسلحة العالمية بتحريض الملوك والامراء الكاثوليكيين لان يتجندوا ضد المبتدعين الى ان يمحوا اسمهم من الوجود . يا للعجب من مترفض ضعيف يتحزب ضد سلطة رب القوات وتبًا لهُ من سخيف عقل يتوهم النصرة على الحق الالهي بالبطش والاغتيال . اما البابا فلم يكتفِ بهولاء الجنود الرهبانية بل شرع يسعى باستخدام فيلبس الثاني (ملك فرنسا) وابنهُ واكابر قومهِ لاعانة الموما اليهم وتجندهم على ابادة البدع بقوة الاسلحة واعدًا بغفرانات جزيلة مكافاة لهم على هذا الجهاد فاذ لم تستحسن الاساقفة هذا المشروع ولم يكن للملك ميل لتنفيذ الاوامر البابوية لم يتداخل بهذه القضية وان كثيرين من اشراف فرانسا واعيانها ابوا ان يتحدوا باعمال كهذه من شانها ان تاتي بنتيجة ايلة لنفيهم من مملكتهم لانهم اعتبروا الالبنجسيين من الرعايا المسالمين الامناء

ان هذه الاجراآت المبنية على تجسس المبتدعين لم تكن مسلمة اولاً الى ديوان خصوصي بل كانت بمعزل عن الانتظام والترتيب فبادر دومينيكوس اذ ذاك لشحذ مرهفات العذاب وتصويبها نحو الالبيجنسيين المنكودي الحظ مولفًا من العوام طغمة سماها جند المسيح فاستحسنها البابا ثم اسس رتبة القديس دومينيكوس او اعضاء عائلته وحينئذٍ فاز المذكورون بالتفات الامبراطور فريدريكوس الثاني وحمايتهِ . ان الاضطهاد ينتشر بسرعة نظير الامراض الوبائية جالبًا معهُ سموم الرزايا القتالة اما الكنيسة الرومانية فلم تضق ذرعًا عن افراغ كنانة ويلاتها في قلب من لم يقر بسلطتها الموهومة ومن ثمَّ اضاف البابا غريغوريوس التاسع خليفة الموما اليهِ على بنود التفتيش السري المتقدم ذكرهُ زيادات شتى ثم اقام في طولوس سنة ١٢٢٩ مجمعًا حكمت تحديداتهُ بوجوب قيام خدَّام هذه الطغمة سواءٌ كانت من العوام او الاكليريكيين بالتفتيش على المبتدعين وتجسس

احوالهم وبعدم اقتدار الحكام السياسيين على حماية احد من المتهمين ثم بضرورة تدوين اسماء سكان الاقاليم المختلفة . وقد فرض المجمع المذكور ايضاً على كل انسان يبلغ سنةً معينةً من حياتهِ ان يقسم يمين الالتصاق بالايمان الكاثوليكي ورفض البدع فان ظهر منهُ قصور باذكروبالاشتراك قانونياً ثلاث مرار في السنة بما يسمونهُ القربان المقدس يحكم على الشخص المخالف بالابتداع ثم يُعامل بما تستحقهُ تلك الحالة . وقد تميز هذا المجمع نفسهُ بمنع العوام عن مطالعة الكتاب المقدس ومن ثمَّ تولدت تلك الخطية الفظيعة وهي منع خبز الحياة عن الخطاة الجياع الهالكين الامر الذي من شانهِ ان يرجح كفة القضاء على الكنيسة الرومانية ترجيحاً يعادل ثقلهُ قيمة النفوس الخالدة ودم ابن العلي المسفوك لاجل خلاصها

فحلت بالابيجنسيين اذ ذاك صواعق النيران وفتكت بهم اسنة الترفض عوضاً عن البراهين السديدة وطرحوا في سجون موبدة حيث كابدوا اشد العذاب حتى ان المنكرين البدع والعائدين الى احضان الكنيسة الرومانية لم يسلموا من مخالب مضطهديهم بل سيقوا الى السجون بلا رافة واما من كانت جنايتهُ خفيفة لم يعتد بها فلم ينجُ من السياط والمقارع والعقوبات الكنائسية التي بعجز اليراع عن تعداد تفاصيلها . ان الرسالة الاتي بيانها الواردة من القديس دومينيكوس تشخص صريحاً تلك الروح التي كان يحكم بها بالقضاء على المبتدعين (حسب زعمهم) وهي ان الاخ دومينيكوس ادنى الواعظين يهدي التحية بالرب الى جميع شعب المسيح الامين الواصل اليهِ هذه الرسالة . انهُ بواسطة سلطة الرئيس السيستريشياني الذي عين لنا هذه الوظيفة قد صالحنا حامل الاحرف يونطيوس ريكاديوس من قد رجع ببركة الله من طائفتهِ المبتدعة اما نحن فنوصيهِ ونحتم عليهِ ان يقاد في ثلاثة احاد او ثلاثة اعياد من احد القسوس واكتافهُ معراة من خارج المدينة الى باب الكنيسة حيث يجلدهُ احد الاعوان بالسياط الى ان يصل اليها ثم نفرض عليهِ ايضاً ان

تمتنع في جميع الاوقات عن اللحم والبيض والجبن وكل ما يخرج من اللحم الاَّ في ايام الفصح والعنصرة والميلاد اذ نامره ان ياكل بها لحمًا انكارًا لضلالتهِ السابقة ونرغب ان يحفظ ثلاثة اصوام في السنة ممتنعًا حتى عن السمك وان يصوم ثلاثة ايام في كل اسبوع متجنبًا عن السمك والزيت والخمر ما لم يدعُ لترك ذلك ضعف جسدي او عمل شاق في وقت الحصاد ثم نوصيه بلبس الاثواب الرهبانية بصليبين صغيرين مخيطين على جانبي صدرهِ . وان وافقتهُ الفرص ليسمع كل يوم قدَّاسًا وليذهب الى الصلوات المسائية في الكنيسة في ايام الاعياد وليحافظ على جميع الساعات القانونية الاخرى ليلاً ونهارًا وليتمم حينئذٍ فروضه اي ليتلُ الصلاة الربانية عشر مرار سبعة اوقات في النهر وعشرين مرة في نصف الليل . وليرِ رسالتنا هذه في اول يوم من كل شهر الى قسيس مدينة سيرفيكيوم المامور بمراقبة كيفية عيشة حامل الاحرف المومأ اليهِ وتصرفهِ مراقبةً مبنيةً على التدقيق والتمعن وان اهمل المحافظة على هذه الاوامر او توانى عن ذلك نصرّح بانهُ حانث في قسمهِ ومحروم ثم نعاملهُ بما تستوجبهُ تلك الحالة . اما ديوان الفحص هذا فقد صاحبهُ مشاهد مريعة من البغي والعدوان وان لم تكن جزءًا من تاريخهِ نفسهِ تشخص صريحًا روح النظام المتولد عنها تاركةً اثرًا دمويًا شاهدًا من جوف الارض على الكنيسة الرومانية

ان سمعان دومونتفورت الاول الانكليزي من مدينة ليستر وارنولد رئيس دير سيتو وفولك اسقف طولوس وكثيرين من امراء الكنيسة الرومانية واعوانها في اوروبا باسرها تجندوا ضد الالبيجنسيين المنكودي الحظ واعملوا بهم الصوارم البتارة بقساوة دونها فتك الذئاب واغتيال البرابرة اما التاريخ فيقف مندهشًا من هذه المراسح الدموية العديمة النظير في صفحاتهِ مقرًا بالعجز عن وصف ما اتصل اليهِ ترفض كنيسة رومية من المنكرات والقبائح للتمكن من اطماعها وسيادتها المطلقة . حيث لم تكن تشاهد اذ ذاك الاَّ الحرب والحصار والمطاردة والهجوم والذبح محدقة

بالالبيجنسيين من كل جانب . قيل لارنولد السابق ذكرهُ عند حصار مدينة بيزيرس وفتحها هوذا كثيرون من الكاثوليكيين هنا فاجاب قائلاً ان الله يعرف خاصتهُ ثم امر بقتلهم جميعاً وحينئذٍ صارت المذبحة عامة لم يرحموا شيخاً لعجزهِ او طفلاً لحداثتهِ ولم يرثوا لدموع النساء والاولاد ولم يبرد غليل صدورهم الى ان اخلوا تلك الديار من سكانها وصيروها بلقعاً صفصفاً ينعق فيها البوم والغراب ويسود عليها الموت والخراب . ثم انهم لم يكتفوا بذلك بل زحفوا بجيوشهم الجرارة الى ضواحي تلك الجهة وارجائها حيث نشروا الوية الدمار واطلقوا لجياد اضغانهم العنان فلم يسلم من مخالبهم الاَّ القليل فيا لها من اعمال ترتعد منها الفرائص وتقشعر منها الابدان جعلت تلك البلاد الزاهية العامرة التي كان يغرّد بها بلابل الامن والسلام ويصدح على افنان محاسنها العزّ والاقبال رسوماً خالية وقفاراً جرداء واماتت تلك الانفس المخلوقة على صورتهِ تعالى والمفتداة بدم ابنهِ . اهذا هو انجيل السلام اهذه هي اثماره اجيبي ايتها الكنيسة الرومانية السكرى من دماء القديسين . اما في مدينة مانيفرا فاضرموا اتوناً ناريًّا تجاه قلعتها ثم طفقوا يحرّضون الالبيجنسيين على التوبة والرجوع او تجرُّع كاس المنون حرقاً فاستشهد اذ ذاك مئة وثمانون نفراً مفضلين الحتف في وسط اللهيب على انكار الشهادة للحق ولقد استمرّت هذه الاهوال كثيراً من السنين ورهبان القديس دومينيكوس قائمون باجراء المراسيم الصادرة من المجمع اللاتيراني . قال بيزوفيوس انهُ في اوائل الجيل الثالث عشر احترق جماهير غفيرة من المبتدعين في جرمانيا وفرنسا وايطاليا وانهُ في مدينة استراسبورج وحدها القي القبض على ثمانين شخصاً فان انكر احد من هولاء المبتدعين ضلالتهُ يضعهُ الراهب المسمى كونراد دومازي مفتش رسولي من طغمة البرديكانتيين تحت امتحان الحديد المحمى فمن كان يوثر بهِ قوة النار يسلم الى السلطة السياسية ليكون وقوداً للنيران كمبتدع وعلى هذا لم ينجُ من ذلك الاَّ القليل . ثم ان المنازعات التي حدثت وقتئذٍ

عن الكرسي البابوي والسلطة الامبراطورية حالت دون امتداد القوة التفتيشية هذه في جرمانيا على اننا نرى اثار هذا الديوان الدموي منعلقة بتاريخ سردينيا والسرب وسوريا . وقد اسس ديوان الفحص في ايطاليا فيفيانوس بوركومينيسس وبطرس من فيرونا اما بطرس الموما اليهِ فصادف بعد قليل من الزمان منذ تعيينهِ في هذه الوظيفة جزاء اعمالهِ حيث هجم عليهِ البعض من مريري النفس اذ كان منطلقاً من كومو الى ميلانو للقيام بواجبات وظيفتهِ واذا قوه كاس المنون فحينئذٍ اثبتت كنيسة رومية قداستهُ ثم اعتبرتهُ طغمة التفتيش كقديسها الحامي داعيةً طغمة من اعوانها تشريفاً لموتهِ اخوة بطرس الشهيد . وقد كان التفتيش في ايطاليا مبغوضاً لسبب قساوة اجراآتهِ ولاسيما نحو المتهمين بالشعبذة بغضاً نتج عنهُ ثورات شديدة في مدينتي بريسكيا ومانتو حتى في نفس رومية هجم عامة الشعب على السجون وكسروا ابوابها ثم حرقوها الى ان صارت رماداً

ان لنا مندوحة عن تعداد التفاصيل المتعلقة بادخال الاعمال التفتيشية الى بلاد المجيار وبولونيا ومع ان فينيسيا لم تستطع ان تتخلص من اهوال النظام المشار اليهِ صدّت حمية مجلسها العالي تقدمهُ وحالت دون حصولهِ على سطوة دائمة في تلك المملكة . اما مملكة نابولي فمن جرا المنازعات الحادثة وقتئذٍ بين البابا والملك بالنظر لتعيين المفتشين سلمت من شروره المربعة وكذلك البلاد الواطية نجت منهُ ايضاً لانهُ لم يستطع ان يتمكن بها . اننا سنقرر في الفصل التابع عن ادخال التفتيش الى اسبانيا ونقتصر في بقية هذا الفصل على فرنسا خاصةً لكونها المركز الاصلي لقوتهِ . ثم انهُ في اواسط الجيل الثالث عشر دوّن رايموند دوبيكنافورت الدومينيكي بامر البابا غريغوريوس التاسع مختصراً عن الشرائع المسنونة ضد المبتدعين ثم ولي ذلك زيادات شتى على هذا المجموع قام بها اساس المبادي التفتيشية . واضيف في المجمع الملتئم في تناكونا تجديدات جديدة على تلك المذكورة انفاً اما ديوان التفتيش فانتصب

اولاً في طولوس ودُفعت ادارتهُ الى رهبان القديس دومينيكوس ولا خفي ان مصدر التفتيش القديم انما هو الحبر الروماني المدعي بالعصمة والواضع اصول التعليم بالاستحالة في مركزهِ القانوني كما تعتقد بهِ الكنيسة الرومانية ان لنا ادلة صريحة على وجود سجن تفتيشي في طولوس في اوائل الجيل الرابع عشر وعلى حدوث احتفالات قانونية تكاد تشبه تلك التي تسمت في الازمان المتاخرة باللغة الفرنساوية اوتودافية (اي عمل الايمان وهو موكب ديني يقاد بهِ المبتدعون الى الاتون الناري للاحراق وسياتي الكلام عنهُ فيما بعد) وان السكان المنكودي الحظ كانوا بدوا من المخاوف والعذابات من جراء ذلك ما يفوق الوصف . فكل زلة من شانها مشابهة الاهمال او البدعة سواء كان ذلك مبنيا على اساسات طبيعية ام اعتصابية لم تكن دون البدعة نفسها نظرًا لالفاظ غيرة اولئك المردة العتاة في تلك الاجيال المظلمة وتحريك روح الاضطهاد وسوء المعاملة منها استماع صلاة الولد نسيين واضافة قسوس المبتدعين في المنازل وزيارتهم في السجون وممارسة نفس الصلوة المستعملة من المعلمين البسطا وقراة الكتاب المقدس في اللغة الدارجة او استماع تلاوتهِ حتى قبول ابرة من احدهم حسب في التحديدات المذكورة من الكبابر الجديرة بالقصاص وما هو ياترى فالجواب نراهُ في اكثر الاحوال من مراة التاريخ مرسومًا باحرف نارية وهو الاحراق بالحيوة والسجن الابدي اه . ومن الادلة الكثيرة على ما ذكرما رواهُ احد المورخين حيث قال ان احد قسوس كنيسة رومية دخل سرًا في جمعية هولاء المتهمين بالبدعة ومع ذلك لم يكفّ عن الخدمة على مذبح كنيستهِ الاصلية ضدًّا لاقتناع ضميرهِ فلم يلبث حتى فشى امره واتي بهِ امام الديوان التفتيشي اذ اجروا محاكمتهُ اصوليًّا . اما هو فوعد بالتوبة والرجوع فاطلقوا سبيلهِ ولكنهُ عاد ثانية للاتحاد مع رفقائه المشار اليهم فاذ ذاك ساقوهُ مرةً اخرى الى التفتيش غير انهم لم يستطيعوا ان يخلعوهُ عن الوظيفة لسبب وفاة اسقف ابرشيتهِ حينئذٍ وخلوها من

الرئيس الروحي فرفعوا الدعوى الى الحبر الروماني فانفذ منشوراً يامر باحراقهِ فاجروا عليهِ اذ ذاك عمل التعبير الهول ثم نزعوا عنهُ الشعر بحرق راسهِ وطرحوهُ في النار الى ان صار رماداً . ان هذا الديوان الطولوزي حكم حتى على المنكرين بدعهم بالسجن الابدي وليس ذلك فقط بل الاموات ايضاً لم تسلم من انتقام هولاء المضطهدين القساة الذين فاقوا على البرابرة بنبش قبور من توهموا بهم الانحراف عن معتقداتهم واخراج عظامهم المستريحة بسلام في اجدائها واحراقها لان كنيسة رومية لم ترتو من دماء الاحياء بل اتصلت الى محاربة الراقدين في الضريح فيا لها من قبائح تخجل منها الوثنيون

انهُ الى الان لا ينفك زائر مدينة طولوس عن معاينة دير التفتيش القديم قائماً على الشاطي الايمن من نهر كارون والمغارة التي كان يقطنها القديس دومينيكوس عند زيارتهِ تلك المدينة ليؤسس بها ذلك الديوان الجهنمي الذي استمر الى ختام الجيل السابق مفعما من الآفات والشرور وغاصاً من ضواري الفتك والرزايا . وقد سرت هذه الويلات سريانا وبائيا الى الاماكن المجاورة حيث امسى كثير من السكان هدفاً لنبالها زماناً طويلاً كما كان الامر في طولوس ايضاً . ثم ان البلاء الذي داهم الفرنساويين البروتستانت ظلَّ اخذاً في الاشتداد الى سنة ١٧٦١ اذ افرغ الاضطهاد اسنة جعبتهِ الاخيرة بتجريع كالاس الشهير كاس المنية بقساوة دونها بطش الوحوش الامر الذي هيج غيظاً عمومياً ارتجت منها رومية نفسها وقنا ليس بقصير . وقد كتبت طولوز على احدى كنائسها باللاتينية ما معناهُ لا يوجد كان اعظم قداسة من هذا في العالم اجمع . ان خداع الذات طالما يكون هلاكاً للنفس . فالمحكمة الطولوسية هذه لم تحاول اجراء سلطتها البعيدة الشبه عن الرسل والمعطاة للهدم لا للبنيان على المبتدعين المسيحيين فقط بل تتبعت الطائفة العبرانية واذاقتها من سموم ادغالها ما تشمئز منهُ النفوس لان الداهية التي المَّت باليهود الباريزيين في حكم الملك لويس الملقب

بالقديس سنة ١٢٢٩ خلفت من نتائجها المرّة في طولوس فولج حينئذٍ تفتيش المدينة المذكورة منازل نسل ابرهم ثم ضبط كتبهم العبرانية كافة ولاسيما كتب التلمود واحرقها علناً . ربما يظن الانسان ان قصصاً خرافية كهذه بعيدة عن ايقاع الخطر والشكوك لاحتوائها على ما لا تقبلهُ العقول السليمة من التعاليم الكاذبة غير انهُ نظرًا لقلة العلم اذ ذاك وكثرة الخرافات اراعت كتب كابالاً اليهودية قلوب اهل تلك الاعصر المظلمة كانها من الكتب السحرية المخيفة (ان كابالاً انسان يهودي كتب ضد المسيح واعتبرهُ المسيحيون مبتدعاً شريرًا وساحرًا عظيماً واتباعهُم الكاباليون) اما نحن فنقرّ بانهُ ان صحت فاعلية السحر فكتب ميشنا وجيميرا (من الكتب التلمودية) تتضمن قصصاً من شانها ان تخوّف الاغبياء السريعي التصديق . ولم يُصَب اليهود فقط بهذه الافات والتهم بالاعمال السحرية بل امتد ذلك الى كل من وقعت عليهِ التهمة من هذا القبيل في جهات شتى من اوروبا كما حصل في قصة بطرس داپونو الذي اتهموهُ بالسحر وانزلوا بهِ من العذابات الصارمة ما يفوق الاحتمال الى ان تجرّع كاس الحتف في السجن . اننا لا نعلم هل ان اعتقادهُ بفاعلية السحر ناجٌ عن غباوة جعلتهُ يسلم بصحتهِ خلوًا من براهين صحيحة او عن خداع حملهُ على ان يمارس ما لم يعتقد بحقيقتهِ

ان بين من اشتهر وقتئذٍ بالصرامة فيما بين مفتشي الديوان الجديد بطرس ريتيس في سنة ١٢٥٠ لانهُ سعى بتنفيذ اوامر مجمع طولوس الذي منع العوام من اقتناء الكتاب المقدس في اللغة الدارجة بروح الترفض المتناهي في الشدة . وقد كابد الولدنسيون في زمان سلطتهِ من الصرامة البربرية ما تندك دون وصفهِ اقلام المورخين فغصت السجون حينئذٍ من الاسرى المظلومين حتى ضجت روسا اساقفة ايكس وارل وناربون بالشكوى ليس فقط من عجزهم عن القيام بمصاريف المسجونين بل من عدم وجود سجون كافية لهولاء المنكودي الحظ . ثم انهُ عند ختام الجيل الثالث عشر اتخذ

فرع من الالبيجنسيين الموما اليهم لقب مرسلين وفي اوائل الجيل الرابع عشر انشب التفتيش مخالبهُ بشخص شهير من زمرتهم يسمى سكاريللي ثم احرقوهُ لاعتبارهم اياهُ من روساء المبتدعين . اما البابا اكليمنضس الخامس فارسل لهذه الطائفة الغفيرة فاحصين سامهم واعظين فشرعوا يرفعون اليهِ اخبارًا كاذبة افترائية عن تصرفات هولاء المخالفين وعددهم فاشهر عليهم حربًا صليبية . ثم مشى جنودهُ لابادتهم بقوَّة الاسلحة فزحفت عليهم كاسراب القطا واطبقت اطباق الغمام واخذت تقتنصهم اقتناص الظبا والطيور من حصونهم ومكانهم الى ان اجرت من دمائهم سيولاً ورفعت من جماجمهم تلالاً ولم تغمد مرهفات الغدر حتى افنتهم فناء تكلُّ دونهُ الضواري الجائعة والكواسر الظامية فكم من عائلة يتمتها الاغتيال وحلت بها الافات والاهوال وكم من منزل عامر بالحب والسلام دمرهُ البغض والانتقام وكم من مدينة زاهية فسيحة الرحاب استولى عليها الدثار والخراب . فان كان دم الشهداء زرع الكنيسة لم يكن الامر كذلك في كل الاحوال بالنظر لفحوى المثل الحرفي لان ابادة الايمان المصلح في فرانسا واسبانيا وبلجيكا يقوم شاهدًا سليمًا على ما ذكر

ثم انهُ في سنة ١٢٠٧ صوَّبت الكنيسة الرومانية اسهم الانتقام نحو زمرة اخرى تسمى بالفرسان الهيكليين ناسبةً اليها الابتداع والانحراف عن الايمان اما هذه الجماعة فكانت بوقتٍ ما سندًا جوهريًا للنصرانية على الوثنيين والعرب اذ اراقت دمها في سبيل المحاماة والمدافعة عنها واقتحمت اقتحام صناديد الابطال الى قلب الاخطار للذب عن الممالك المسيحية . فاصدر وقتئذٍ ملك فرانسا فيلبس لوقير امرًا بالقاء القبض على الجماعة المشار اليها لانهُ اغتاظ منها لامدادها البابا السابق بالدراهم اذ كان آخذًا بحاربتهِ ثم طرح اعضاءها في السجن ولم تكن البدعة فقط علة هذه المعاملة بل اتهموهم علاوةً على ذلك بكبائر فظيعة وبمعاهدة سرّية مع العرب بتسليم الممالك النصرانية الى ايدي الاعداء . فالبابا اكليمنضس الخامس المتولي

وقتئذٍ عرش الخلافة البطرسية لم يستطع على اتخاذ الوسائل اللازمة للدفاع عن هذه الطغمة لانهُ كان تحت ممنونية الملك الموما اليهِ بل اسيرًا في قبضتهِ مع انهُ كان شديد الرغبة بانقاذها لكونها ابدت من صدق الخدامة نحو سدّتهِ ما وطد دعائم عزها . فلأنهُ لم يكن للهيكليين الاَّ قليلاً من المبادي الصحيحة وكثيرون منهم وُسموا بفساد الاداب لم تخلُ التهم المذكورة من بعض الامكانية فلما القوهم في السجن وتهددوهم بعذابات مريعة ابتاع بعضهم النجاة بتلطيخ ارفاقهم دفعاً لشبهات البابا . اما فيلبس فاستدعى الى حضرتهِ اثنين وسبعين شخصاً من هذه الطائفة ثم اقام محاكمتهم اقامةً مبنية على التغرض وحب الانتقام لان اجراآت الفحص ابانت صريحاً الوسائل الاغتصابية المستعملة للتمكن من ايقاعهم في اشراك الغدر والخيانة . لان احدهم اكد بانهُ قد عُذّب من انسان سكران وغيرهُ اعلن بانهُ كابد صرامة لاتطاق في مدينة كاركاسون ثم حينما سئل لماذا لم يقل الحق وقتئذٍ اجاب لاني لم اكن اتذكرهُ وقد رجوت المتولى تعذيبي ان يسمح لي بمخابرة مع رفقائي فلما تحادثت معهم خطر على بالي ما قد سهوت عنهُ فكان يجيب الهيكليون على التهم المقامة ضدهم موكدين بان اشاعات كهذه لم يكن لها ادنى صحة وانها انما تولدت من اناس ذوي اغراض يخشون عواقب التفوه بالصدق ثم ان اكثر المورخين خلا الفرنساويين سلموا بعدم صحة التهم المذكورة

ثم التئم بامر البابا اكليمنضس والملك فيلبس مجمع في فينا للنظر في امر استدامة الطائفة المذكورة او الغائها فاصدر البابا منشورًا يلقب فاسينس ميزيريكورد بوم يامر بهِ الحكام السياسيين والروسا الروحيين ان يقدموا اليهِ ويعينوهُ على هذا الفحص ففي هذا المجمع ناقض كثيرون من الواشين على الهيكليين اقوالهم . لكنهم اقاموا محاكمتهم بصرامة لا مزيد عليها فقرر احدهم انهم عذّبوهُ على نار مشتعلة الى ان خرجت عظام رجليهِ وقال اخرانهم اجروا استنطاقهُ ثلاث مرار وانهُ اعيل على الخبز والماء ستة

وثلاثين اسبوعاً ثم اذ كان المجمع المذكور آخذاً في المفاوضة اجرى رئيس اساقفة سانس عملاً قبيحاً للغاية محركهُ الاصلي فيلبس الموما اليهِ وهو اماتة ستة وخمسين شخصاً من هذه الجماعة حال كونهم صرَّحوا ببراءة طائفتهم مما نسب اليها من الجنايات . ومع انهم وُعدُوا بالنجاة ان اعترفوا بذنب جماعتهم ومع ان اصحابهم توسلوا اليهم ان لا يلقوا بانفسهم الى التهلكة لم يثنِ عزمهم عن تفضيل كاس الحتف على التفوه بخلاف الواقع فتجرعوها بحماسة الابطال موكدين برارتهم الى اخر نسمة من حياتهم وقد خاطب رئيسهم العام يعقوب مولّا عند نطعه الشعبَ بهذه الكلمات وهي . حيث ان نهاية الحياة ليست بالوقت اللائق للتكلم بالاكاذيب وان ولد ذلك صالحاً خصوصياً فعلى هذا اقسم بكل شيء مقدّس ان ما نسب للهيكليين من الكبائر وما تلي الان في القضاء المحكوم بهِ عليَّ هو كاذب وعديم الصحة اما هذه الاجراآت فكانت منحصرة في فرنسا ولم يداهم الهيكليين قصاص جدير بالالتفات في الممالك الاخرى الامر الذي انما كان دليلاً جلياً على براءتهم من التهم الحقيقية المذكورة الا انهُ مهما كانت الدواعي والعلل فقد سقطت هذه الطائفة تحت صواعق المضطهدين ولعبت بها ايدي سبا الى ان صارت كالامس الغابر مع انهُ بعد تدميرها باربعة ايام اصدر البابا اكليمنضس الخامس منشوراً يعلن بهِ عدم ثبوت الادلة المقامة ضد الجماعة الموما اليها . ثم لم تكد تخمد نيران اضطهاد التفتيش عن هذه الطائفة الى ان شبت مضطرمة على جماعة اخرى تسمى البيجوية اما هذه الطغمة فكانت فرقة من رهبان الفرنسيسكانيين المنفصلين عن اخوتهم لعدم محافظتهم على ممارسة الفقر الاختياري حسب واجبات نذورهم الاصلية مقررين بعدم اقتدار الاوامر الباباوية نفسها ان تحلهم مما تعهدوا بهِ من النذور فبادر البابا حينئذٍ للحكم عليهم بالابتداع ثم اصدر اوامرهُ الفعالة باجراء القصاص عليهم اجراءً صارماً فتلقت اعوان التفتيش ذلك على قدم الجد والاجتهاد وانزلت بهم اعظم الدواهي والمحن طبقاً لروحها الخبيثة لان رومية لا تنظر

الى كل المصلحين الاَّ بعين البغض والانتقام ولا تعاملهم الاَّ معاملة اشرّ المبتدعين . ثم انهُ في سنة ١٤١٨ حكموا على اربعة اشخاص من هذه الطغمة واحرقوهم بالحياة ثم ولي ذلك احراق كثيرين من مشاركيهم بالاراء والمعتبرين اياهم شهداء الحق . ولقد استمرت هذه الطائفة هدفاً لنبال الاضطهاد حتى عصر لوثيروس الاَّ في فترات قليلة والظاهر ان هذه الطغمة لم تسلم من الاصاليل والبدع فان اراد المطالع الوقوف على حقيقة ذلك فحيلهُ على المجد الثالث من تاريخ الكنيسة لموشيم

مع ان مصدر التفتيش انما كان في الارض الفرنساوية لم يتمكن من الاستقرار بها استقراراً دائماً لسبب المنازعات المتتابعة بين البابا وملوك تلك المملكة فلم يكن من شان هذه المخاصمات التسلم بتثبيت سلطان ديوان يبغي مبني على الظلم والعدوان كهذا الديوان ولاسيما في زمان شبوب نار النزاع بين الملك فيلبس الموما اليهِ والبابا بونيفاسيوس اذ افضى الامر الى حرم الملك المشار اليهِ . ولكنهُ حينما توفي اخذ البعض من اشراف مملكة فرنسا بالمحاماة عن الولد نسيين فخاطب البابا المتولي حينئذٍ الملك كرلوس الخامس مستمدّاً منهُ النجدة والاعانة لديوان الفحص لاجل تنفيذ اجراآتهِ ففاز بالمرغوب وامتلئت السجون من اولائك المنكودي الحظ الى ان لم يعد في طاقة الكنيسة القيام باعالة هولاء الاسرى فرفعاً لهذه الصعوبة خصص البابا جزءاً من مال الكنيسة لسد مطالب مسجونيها واعدّا بغفرانات جزيلة لمن يساعد على اقامة السجون . ثم ان الاصلاح الذي شرع بهِ ويكليف وهس قدّم لامحالة لاعوان التفتيش الفتاكة ميداناً فسيحاً للقيام بهذا الجهاد الديني قياماً لامناص من غوائلهِ المحزنة . اما التاريخ فلم يفصل اجراآتهِ الخاصة عن الاعمال الفظيعة التي تميزت بها الكنيسة الرومانية لانهُ لم يكن الاَّ جدولاً من بحار شرورها ولا ريب ان العامل على تسليم يوحنا هس الى الاتون الناري سنة ١٤١٤ والى اخراج عظام ويكليف من ضريحها والقائها في نهر سويفت لم يكن الا التفتيش بتحريكهِ مجمع كونستانس

لهذه المعاملة البربرية

ثم اننا نختم هذا الفصل بهذه الملاحظات الاتية وهي انهُ لا يمكن ان يمنعن الانسان بما تولد عن هذا الديوان الجهنمي وامهِ الكنيسة الرومانية من الخراب والافات والموت وما انتشر عنها من السموم الوبائية الاوبرتعد جزعاً واشمئزازاً غيرانهُ ينبغي تأدية الشكر للعناية الالهية لان النظامات المبنية على مبادئ كاذبة وان نظر اليها الناس احياناً بعين الاستحسان هيهات ان يطول زمان خداعها . لان الذين يستطرفون تموجات الحية يفرُّون منها باقشعرار غريزي حينما يسمعون فحيحها الدال على صفاتها السامة . ثم وان لم يكن التفتيش القديم قد قام باجراء جميع ما ابداهُ من تخلفهُ بهذه الوظيفة اجراءً تامًّا ولكنهُ نفَّذ سطوتهُ في عصر اشد ظلمةً من ذاك وما كانت حقائق الاحوال الالعاجزة عن ان تقوم بوصف سلطتهِ المطلقة المتجاوزة حدود الانسانية والعدالة تجاوزاً لامزيد عليهِ . اما نحن فنعتقد بان الاضطهاد في ايامنا هذه امرٌ عديم الضرر بالنسبة لتلك الايام المظلمة وان وجد فتسهيلات المراسلات من جهة الى اخرى والميدان الفسيح لانتشار الاراء العامة وتصويب اسهم الملام على المتعدي من شانهِ ان يعيق حرية اعمالهِ ويقصرها طبعاً ان لم يكن قادراً على منعها منعاً تامًّا . ومن جملة الادلة على ما قيل هو القصاص الصارم الذي كابدهُ المادايون في الازمان المتاخرة لان الصوت الذي ارتفع في ارجا اوروبا البروتستانتية بالنظر لتلك المعاملة السيئة وان ظهر في هذه الايام عديم الفاعلية سترن دمدمة رعودهِ في اذان باباوات رومية التي طالما ركب متونها اولائك الرؤساء المطلقو التصرف مكدرو قديسي العلى وقتاً طويلاً على اننا لا نستطيع مراجعة تاريخ الاضطهاد في تلك الاعصر المظلمة بدون ان ترتعد فرايصنا اشمئزازاً وكدراً . فاي عقلٍ يا ترى يمنعن بتلك التسهيلات التي فازت بها تلك الديانة المضطهدة للقيام باجرا انها المشاركة لاعمال مملكة الجحيم ولا يبات منذهلاً ومقشعراً وذلك اذ اصبح القوم

بمعزل عن الالفة والارتباط والتقارب وحينما كان النظام المنطوي على السيادة والتسلط موثقًا الفلاح بسيدهِ بوُثُق حديدية ولما لم تكن مطبعة ترعد ناشرة دعوى المظلوم ولما لم يكن بريد يقوم بنقل خبر الامهِ وعنصر برقي يشهر تفاصيل اضرارهِ من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب بسرعة تحاكي ايماضهُ. نعم ان الظلمة الحالكة استولت على ذلك المشهد المريع لكن لم يكن الكل ظلامًا من جميع الحيثيات لانهُ كان لكثيرين من اولايك المكابدي الالام ينابيع تعزية داخل قلوبهم لم يكن العالم يعرفها وان كانوا مرفوضين ومبغضين ومعذبين وماتين فقد علموا كيف يحولون ابصارهم من الظلام الى النور ومن الشقاء الزائل الى السعادة الدائمة واذ سفكت دماوهم وامست اجسامهم طعامًا للنيران وفريسة للعذاب شعروا بانهم انما كانوا حقًا محسنين لذريتهم

اننا لا ندقق النظر بالحرية السياسية والمدنية الناجمة من تلك الالام للاجيال التابعة الا ونمتلي حمدًا وشكرًا للعناية الالهية ونعتبر قيمة المثالة التي خلفتها لنا عن صحة سطوة الديانة المسيحة الحقيقية وقوَّة تعاليم الخلاص وجوهريتها وثباتها تلك المبادي المبنية على استحقاقات ذبيحة الفادي التي تشل دونها اذرع المضطهدين العتاة وتضيق ابواب الجحيم عن الغلبة عليها نعم اننا نعتبرها اعتبارًا يفوق الوصف. فكل صراخ ضجت بهِ السنة المتالمين من العذابات البابوية قد ايقظ عضوًا راقدًا من سباتهِ الثقيل وكل لهبة ارتفع زفيرها الى عنان الجو افجرت نورًا براقًا على اجراآت الكنيسة الدجالة وفروضها ولولاه لبقيت تلك الاعمال في حيز الخفاء الى يومنا هذا. ثم انهُ قد اتفق بالعناية الالهية ان التفتيش الذي عذب الانجيليين علم اللولارديين (من اتباع ويكلف) والنظام الذي كاد يفني اللولارديين حرك روح الاصلاح فلتكن هذه العبارة القائلة هيهات ان اموت موتًا موبدًا لهج كل شهيد مسيحي وليس ادباء الوثنيين نعم لم يكن افق المسيحيين شهداء الحق محجوبًا بظلام دامس لانهُ لم تتصاعد انة واحدة من خدام يسوع

الامناء الاَّ والتفت اليها معلمهم كما قيل اليس كلها في كتابك نعم ان انتقالهم من الارض الى السما كان مصحوبًا باهوال وعذابات جسدية انما كان ذلك في الغالب قصيرًا افلا نوجد مكافاة . فمن هو الذي ياترى يتنهقر عن اختيار السبيل الواجب ان يسلكهُ اسبيل المضطهد الدموي او صراط المضطهد السليم اذن يحسن بنا ان نعيش لاجل غايات ابدية وان نحيا ليس لاجل اليوم او الغد بل للمستقبل الابدي وان نحمل الصليب كما حملهُ المسيح فهذا هو الطريق للحصول على الشركة معهُ بالاكليل الذي مات لاجلهِ . فعلى هذا المنوال مهدت الكنيسة الرومانية السبيل لانتشار الديانة المسيحية الحقيقية لان الجلاد الفاصل راس ضحيتهِ عن الجثة يظهر عجائب تركيبهِ الطبيعي ولكن هل يجب ان نشكرهُ لاجل هذه المثالة

الفصل الثاني

الات عذاب التفتيش واجراآتهُ

ان اعمال التفتيش قد تفاوتت كثيرًا في الاعصر القديمة بالنسبة لتاريخها في الاعصار المتاخرة اما روحها العامة فاستمرَّت هي هي نفسها غير ان اختلاف صرامتها قام بغيرة اعوانها ونشاطهم اكثر من قيامهِ بائتلاف قوانينها المتعلقة على اتساع نظامها وامتدادهِ . ان هذا الديوان لم يدس من اول وهلة كل اعتبار الرتب البيعية ولم يضاد وقتئذٍ احتجاج البابا وات انفسهم كما كان ديدنهُ ذلك فيما بعد ومع ان هذه المحكمة المهولة السرية لم تكن في اول الامر مجهولة بالكلية لم يصر الكتم من جملة مبادبها الاصلية حينئذٍ حتى خنام العصر الخامس عشر اذ توطدت دعائمهُ توطيدًا تامًا

على تلك الاصول الخبيثة تحت حجاب الكتمان المخيف. لاعجب ان حالت الاراء العامة في هذه الايام دون امتداد اعمال هذا الديوان واجراآته لان صفاته في الوقت الحاضر محجوبة كالاسرار الغامضة يصدر منها احياناً معلنات فجائية او على الاقل انات تمزّق القلب فبناء على ما اتصف به من الكتمان نحكم ان التقرير على التفتيش في الازمان السالفة احب من الشرح عن تفتيش العصر الحالي غير اننا نحذر المطالع من الاستناد على نتيجة جوهرية من الظروف المذكورة لانه لا بد من اننا نقرر في الخاتمة بعض ملاحظات من جهة مركزه في هذه الايام متجنبين كل تغرّض ومحاباة بل نحافظ على ايضاح التقارير الاصلية كما هي متسلسلة الينا من اشهر المورخين الثقات. ان ترفض كنيسة رومية غير المحتمل اشهر من نار على علم لان شريعتها المقررة تحكم على كل انفصال عن عقائدها المرسومة بكونه اثماً جسيماً يستوجب قصاصاً زمنيًّا وروحيًّا يقوم بالحكم به الحبر الروماني او رئيس الاساقفة طبقاً لما يدعون به من السلطة على ابادة البدع. ومن جملة الادلة على ذلك شرائع مجمع توليدو الرابع المقتبسة منه الكنيسة الرومانية عبارات تستشهد بها على كرم اخلاقها حيث يقول ان اليهود المعتمدين رغماً ينبغي ان يجبروا على التمسك بايمانهم لئلا يجدف على اسم الله ومن جملة تحديد المجمع الخامس ما نصه اننا نصرّح بهذا التعليم المرضي لله وهو انه من الان فصاعداً لا يتبوا ملك عرش المملكة حتى يحلف الاقسام الواجبة منها ان لا يسمح لانسان ليس بكاثوليكي ان يعيش في مملكته وان نكث بقسمه بعد قبضه على زمام الحكومة فليكن ماران اثا امام الاله الابدي وليصر وقوداً للنيران الابدية. وقد رسم المجمع اللاتيراني الملتئم تحت رياسة البابا اينوشنتيوس الثالث بوجوب حرم البدعة والمبتدعين وتسليمهم الى السلطة السياسية عقيب التصريح بالقضاء عليهم للقيام باجراء القصاص وايضاً بضرورة حلف الحكام الزمنيين بالاجتهاد عن ثقة وخلوص على ابادة الرعايا المبتدعين المعينين من الكنيسة كافة من

جهات ممالكهم باسرها . اما المجمع اللاتيراني الاخير فحكم بوجوب افراز المتظاهرين بالمسيحية قاطبةً والمفتكرين عن الايمان سواءٌ من اية امةٍ كانوا عن جماعة المومنين بالمسيح وايضاً بضرورة انفصال المبتدعين والواقع عليهم الاشتباه بالبدعة مشددًا بتنفيذ الاجراآت الموما اليها تنفيذًا منطويًا على الصرامة والعنف الى ان يقول انهُ ينبغي قصاص الاثمين بهذه الجناية والمقضي عليهم بالعقابات المحتومة ومعاملة المرتدين الى ضلالتهم معاملةً خالية من رجاء الصفح والغفران . ثم نضيف على ما قيل الجملة التالية المقتبسة من حواشي التوراة المعنونة بدوبي وهي انهُ من اللازم وجوب احتمال الشرير اذ يتصل لدرجة يتعذر معها اصلاحهُ بدون خطر ازعاج الكنيسة باسرها والاَّ فينبغي قصاص الاشرار وتدميرهم ان امكن ذلك بدون تطويح الصالح في الخطر بواسطة السلطة القانونية روحية كانت ام زمنية سواءٌ كانوا من المبتدعين او مرتكبي المحارم . اما دستور ايمان البابا بيوس الرابع فيقول مصادقًا على هذا النظام ان هذا هو الايمان الكاثوليكي الحقيقي الذي لايخلص احد خلوًا منهُ واكونياس الذي افاض عليهِ الرومانيون كرامات قديس واعتبروهُ كمن حاز رتبة ممتازة بين علماء الكنيسة الرومانية يصرّح قائلاً باللاتينية ما معناهُ انهُ بالنظر للنذور فيرخص بالاعفاء منها لاجل الاضطرار او العدالة وايضاً بالنظر للاقسام فلهُ الرخصة ايضاً بالتحرير من مطلوباتها للاسباب المذكورة فلا بدعَ والحالة هذه ان تجاسرت تلك الكنيسة المدعية بالسيادة المطلقة والمتسلحة بجنود هذه الطغمة الشديدة البطش على سن المعتقدات الدينية حسب مسرتها وعلى وضع العقوبات الصارمة لمن حاد عن تعاليمها

ومن ثم تعين المفتشون المرسلون لاجل القيام بهذه الغايات على قدم الجد والاجتهاد ثم منحهم البابا سلطانًا تامًّا للقضاء على الانحراف عن الحق داعيًا اياهم مناضلين عن الايمان . اما تعيين هذه الوظيفة فقام باوامر البابا الشفاهية او منشوراتهِ ومن جملة الشواهد الدالة على اسلوب الاوامر

المكتبة ما ياتي . اننا نامر بصيرتكم بواسطة كتاباتنا الرسولية لاجل اجراء التفتيش على المبتدعين باشد فاعلية ان تمارسوا الوظيفة المذكورة المسلمة لكم بمحبة الله من سلطاننا الرسولي بدون خوف من البشر مترديّن بروح القوة من الاعالي

ان السلطان المسلم لعهدة رئيس التفتيش العام كان على غاية من السمو والعظمة لانهُ تولج رياسة الديوان الاعلى الحاكم حكماً تاماً على ما دونهُ من المجالس ولم يستطع احد على خلعهِ من الوظيفة الاَّ البابا المتولي تعيينهُ غير ان الملك قد ينصبهُ احياناً واما التثبيت فمنوط بالحبر الروماني ثم ان اقامة من هو دونهُ من المفتشين متعلق بالرئيس العام الموما اليهِ تحت شرط الخضوع للتثبيت الباباوي وكان هولاء العمال معفيين من جميع الخدامات البيعية وحائزين لقب كلي الاحترام ومتساوين بالدرجة مع الاساقفة اما بث الحكم في الامور العضالة فمن متعلقات الديوان باسرهِ فان حاد احد من المتوظفين عن الاصول المقرَّرة يخلعهُ رئيس طغمتهِ عنها وان شاء البابا يستطيع ان يقبض على زمام الحكم ويرتب القصاص حسبما يختار . غير انهُ نظراً لشدة بغض المذنبين لارباب هذه الطغمة لم يجرو على المجرمين من مستخدميها عقاباً الاتحت رداء الكتمان والتستر اذ انهم لم يحسبوا تعريضهم للاهانة والاحتقار من الامور الصوابية فهذه الحجة المبنية على تخفيض القصاص عن مجرمي الكنيسة لاتخفى على كل من وقف على حقيقة روح الديانة الرومانية واجراآتها . اما المقاطعات المتسعة فمن شانها ان لاتستغني في بعض الاحوال عن معونة النواب او القصاد الباباوية غير ان المفتش العام يصرح بالقضاء الاخير . ثم وجب اشتراك المشرعين مع المفتشين الاصليين للقيام بادارة هذه الوظيفة لجهل الفاحصين غالباً بالقضايا الشرعية وان كانوا من عارفي اللاهوت وقد تميزوا بلقب مساعدين او مشيرين ولم تكن هذه المساعدة خالية من اللزوم لانهُ طالما ابدى المفتشون المذكورون جهالة قصوى بالنظر

للموضوعات العلمية المطلوب منهم الحكم عليها ومن الامثلة الفائقة التصديق الدالة على غباوة المذكورين وجهلهم ما قالهُ الدكتور جيدس ان صبيان المدارس قاطبةً يعرفون ان كلمة هيبرتيكوس مستخرجة اصلاً من كلمة يونانية مفادها راي او اختيار ففسرها البعض من هولاء كانها مشتقة من كلمتين لاتينيتين وهما erro ومعناها الضلال و rectus ومعناها الحق والصواب وقد فسرها اخرون كانها مشتقة من adhoeres وتفسيرها الالتصاق لان البدعة حسب زعمهم التصاق بالضلال مبني على العناد هذا علاوة على جهلهم باوضح نصوص الكتب المقدسة حتى بترتيب كنيستهم فمن ثمَّ دفعاً لاغلاط كهذه رخص لهم البابا ان يستدعوا علما اللاهوت والشرائع السياسية بحسب اقتضاء الظروف الى مجالسهم التفتيشية محلفين اياهم قسم الكتمان ثم بعد ان يتمكنوا من الوقوف على ارائهم يحكمون بالدعاوي لانفسهم

اما الواشي فتسمى عندهم بمرقي الايراد وكان من واجباتهِ ان يُعِدَّ الشكوى حالما انهُ لم يكن محركاً على ذلك من سوء الطوية وان يدبر الشهود ويصدر كل البراهين المقتضية وقد منعوهُ عن اجراء وظيفتهِ في مقاطعتهِ الخاصة ولم يسمحوا لهُ بالحضور اذ تكون مسئلة القضاء تحت المذاكرة . واما المسجلون فكانوا كاتبي اسرار الديوان وظيفتهم ليس فقط حفظ دقائق الاستنطاقات وتفاصيلها بل تدوين كل الظروف الجزئية الحادثة حين المحاكمة كالارتباك وتغيير السحنة والتلجلج في الكلام الخ وكانوا غالباً من العوام ومن واجباتهم ايضاً تاديه قسم الكتمان . ثم انهُ نظراً لتعلق المرافعات المذكورة بالاستيلاء على مبالغ جسيمة من الاموال تعين الخزنة او امناء الصندوق للقيام بحفظ الايرادات المضبوطة خاضعين لاوامر الديوان . اما المعذبون او الجلاَّدون فكانوا الاعوان الاجرائيين منوط بهم انزال العذابات المتعددة المحكوم بها من المجلس على المبتدعين والواقعين تحت الشبهة كما كان المقربون في سياستهِ التبليغية

ان سلطة التفتيش تجاوزت الحدود والحواجز واوشكت ان تصل الى السيادة المطلقة الاَّ على متوظفي الديوان نفسهِ واساقفتهِ الذين مع امكان ايقاع الشبهة بهم لم يسغ لاحد ان يقضي عليهم الاَّ الحبر الروماني . فاليهود والسحر والشعبذة والكوايتية (اي الطمانينة السرية وهو اعتقاد شاع كثيرًا وقتئذٍ مبني على ان الديانة انما تقوم براحة العقل الداخلية المستعملة في التامل بالله والخضوع لمشيئتهِ) واللوثيرية والماسونية اوهما امكن ان يشك باتياتهِ تحت التعريف المشار اليهِ وبالاختصار كل راي مخالف لوحدة ايمان كنيسة رومية او ما توهموا مضادتهُ لها صار موضوعًا لفحص هذا الديوان وحجزهِ وقصاصهِ . وقد انشب التفتيش مخالبهُ بكل شريف باسل اخذ بواسطة لمحة من البصيرة ان يثبتهُ قليلاً باضاليل كنيستهِ الظالمة وبكل صاحب ملك ذي ثروة قد تمكن بها من ايجاد وسيلة جديدة للتخلص من جور الكنيسة الرومانية وبالقسيس التابع اقتناع ضميرهِ غير المبالي بسمو مركزهِ الروحي كما انهُ صير هدفًا لنبالهِ ابا العائلة وامها المهتمين بخلاص انفس اولادهما اهتمامًا يفوق على مجرد الفروض والاقرار وبالعذراء المنكودة الحظ المتعلق قلبها بمحبة خطيب مبتدع وبالفاعل الفقير الراجي بالايمان المصلح تعزيةً انكرتها عليهِ الكنيسة الرومانية والمتكلم القليل الانتباه الطاعن قلب الاضاليل المجوبة بسهام القدح والتنكيت وبحب الحرية المشتاق لان يخلع عنهُ قيود السلطة المطلقة ولان يحرر من رقها نفسهُ ووطنهُ المحبوب وبالوف من الفرق الاخرى التي يعجز اليراع عن تعدادها ولم يالُ جهدًا ان يتجسس ويسترق ببصيرةٍ وقادة كل ما من شانهِ ان يمكنهُ من تنقيذ غاياتهِ واطماعهِ وارواء غليل ظمائهِ لسفك الدم البارد والافتراس

ان المعلومية عن التفتيش الصادرة من نظامات نقولا ايميريك المفتش العام في مدينة اراغون سنة ١٥٢٦ القائم بها قواعد اجراآت الديوان التالي من شانها ان تفوق ما سواها اهمية وايضاحًا اما البابا

غريغوريوس الثالث عشر فثبت المجلس المشار اليهِ بحيث صار دستورًا لبقية النظامات الجارية وقتئذٍ في اسبانيا وايطاليا والبورتوغال وسندًا لكل من كتب عن هذا الموضوع على انهُ يمكن ان يضاف الى ذلك تقريرات لورانت الذي كان قبل اذاعتهِ تاليفهُ كاتم اسرار التفتيش ونائب رئيس مدرسة توليدو الكلية لانهُ اوضح اساليب التجسس الحديث وانواع العذاب المستعملة وقتئذٍ للوقوف على المتهمين ايضاحًا تامًا ولذلك نضطر لان نسرد في سياق هذا التاريخ تقاريرهُ المشهورة فنقول. ان استدعاء المذنبين الى المحاكمة صدر اما عن وشاية اقيمت راسًا من احد الاشخاص او عن استعلام حصل بغاية الكتمان والتستر فالاسلوب الاول كان يعزل عن استحسان المجلس لانهُ اوضح من ان يناسب مقاصدهُ الخاينة فبعد رفع الوشاية لديوان الاعتقاد يحلف الشاهد ان لا يذيع الاسئلة المعروضة عليهِ ولا جوهر الاجوبة ثم ان ظهر للمفتش عدم صحة الدعوى لا ينبغي ان يستنتج والحالة هذه انها ليست جديرة بالتصديق لان الحوادث العتيدة حسب زعمهم من شانها كشف القناع عما يلوح في الوقت الحاضر انهُ مناف للحقيقة. اما تصدير الشكوى الواقع عليها الاشتباه فطالما بنوهُ على معرفة شاعت في محاكمة سابقة واذ ذاك يليق بالمفتش ان يسال كل من يرغب في استحضارهِ تاييدًا للقضية الجاري عليها البحث تحت شرط ان لا يكون ذلك اقل من اثنين . ولم يستلزم الامر بظروف نظير هذه ان ياتي الشهود بحقائق اطلعوا عليها حتى ان الادلة المبنية على مجرد الاشاعات والاراجيف المنقولة قبلت قبولاً منطويًا على الاستحسان والمصادقة. وقد سدل الديوان على الشهود حجب الكتمان ولم يمكنهم من الوقوف على حقائق الاحوال بسوالهِ اياهم مسائل عامة مبهمة ان كانوا قد شاهدوا شيئًا مضادًا لايمان الكنيسة الكاثوليكية وحقوق التفتيش او بلغهم شيئًا مما ذكر او مما يحاكي ذلك . قال لورانت انهُ اذ دون المسجل تقارير هولاء الشهود كثيرًا ما سوَّد الوان شهادتهم ومع ذلك لم يستنكف الديوان من قبولها والمصادقة

عليها . ثم ان رداءة صيت الشهود وعيوبهم الادبية لم تحل دون صحة الشهادة ولو كانوا من المبتدعين او المعابين تجاه الشريعة بل سوغوا لهم تادية الشهادة على المدعى عليهِ وليس معهُ وان ناقض الشاهد شهادتهُ لاتنفك عن كونها فعالة واجبة الاجراء . اما حقوق الطبيعة والنسب فلم تُراعَ او يكترَث بها عند الفحص والتجسس لانهُ ساغ للخادم ان يبلغ الوشاية على معلمهِ والابن على ابيهِ والاخ على اخيه الخ ولم يرخص للشهود ان يبرئوا احدًا مطلقًا وان كان بهم الكفاءة للقيام بحق ذلك . وقد اغتنم الواشون المذكورون الفرص المناسبة للتمكن من القاء التهم الناتجة من المحركات المبنيه على الاضغان وسوء النية وكل ما من شانه ان يسوق الانسان لان ينتقم من عدوهِ . فالداعي لتادية الشهادة هو اما الخوف واما الصالح واما الشعور بما ينبغي تقديمه للديوان المقدس من هذا القبيل ثم نظرًا لالتزام الشاهد بتادية قسم الكتمان تشجع المنافق على الاتيان بادلة كاذبة لان كل من مثل في حضرة الديوان لم يتجرا على اذاعة ادنى شيء مما حدث ضمن جدرانهِ . قال تاونسيند في كتاب سياحتهِ الى اسبانيا ان قنصلاً دانيمركيًا من معارفه اصر غاية الاصرار على رفض اباحة اقل امر يتعلق بسجنهِ من التفتيش في بارسالونا مع ان ذلك كان من مضي خمس وثلاثين سنة واذ سئل عن الموضوع المذكور اضطرب للغاية . اما رفيقهُ في الاسر موسيو فالكونيت فلم يمكن اقناعهُ واستمالتهُ لشرح تفاصيل سجنهِ مع انهُ قبض عليه وهو بعدُ في سن الحداثة شابَ وجلاَ وارتعادًا مما المَّ بهِ عند وقوعهِ بين ايديهم فاستمر هذا الامر مكتومًا الى يوم وفاتهِ . اما حقيقة الشكوى المقامة على ذينك الشخصين فهي ان الكونت فالكونيت اتلف ايقونة العذراء وان القنصل الدانيمركي عاين ذلك ولم يبلغ الوشاية على صديقهِ

ثم اذ يقف الديوان الاعلى على الوشاية متجسسًا على المشكو عليهِ يبادرون لالقاء القبض عليهِ وحينئذٍ تنطلق اعوان الديوان تحت دجى

الليل الحالك الى منزلهِ مصحوبين بخازن الطغمة للقيام بحق ضبط الاموال وسلبها . قال احد الكتاب ان الصاعقه الهابطة من السحب المدلهمة ليست باشد هولاً وويلاً من الصوت القائل سلم نفسك اسيرًا الى التفتيش اما الانسان الغافل فحالما تطرق هذه الكلمات مسامعهُ تاخذ طلائع التاثرات والتخيلات الفجائية تطعنهُ بنبالها وتمزّق احشاءهُ ثم يجول حينئذٍ في خاطرهِ ما يترصدهُ من فقد الحياة وترمل الزوجة وتيتم الاولاد والعار الابدي الذي لا يخلف سواهُ ميراثاً لعائلتهِ الملتاعة فيضطرب على الفور ارتياعاً وياساً كمن هو في سكرات الموت فتاخذ عبرانهُ المشتعلة تذرف على وجنتيهِ المكمدتين ومخارج الويل تحرك شفتيهِ المحترقتين واذا بهِ سيق الى السجن فيما بين ضجيج عائلته وبكائها وانزعاجها وتشفق جيرانهِ وحزنهم دون ان يتمكن احد من مشاهدة شدة انقباض افكاره واكدارها الاجدران السجن الرطبة القذرة . اما سجون التفتيش وان تكن صارت في الاعصر المتاخرة ذات نور وهواء اكثر مما كانت عليهِ في الازمان القديمة لكنها كانت وقتئذٍ على غاية من الظلمة والعفونة تحاكي القبور هولاً وقبحاً . ان قارىء تاريخ موارد الشهير بعجبة خير الجنس البشري يعلم اوصاف سجون تلك الايام ورداءتها ولا يغرب عن تصديقهِ حينئذٍ عدم استثناء سجون التفتيش من القوانين والمبادي العامة وقد وضعوا اصحاب الجنايات الطفيفة في سجون عامة واما الشاردون من خدام الطغمة المقدسة فعينوا لهم من السجون السرية ما هو اشد عزلةً واختصاصاً وسجوناً سرية للمبتدعين يدفن بها الاسير المنكود الحظ خلوًا من معاشرة احد من البشر بلا كتب للتسلية وبدن نسخة نحنوي على صورة دعواهُ وفي كثير من الاحوال منعوهُ من التفوه بكلمة لئلا يتمكن من وسائط المخابرة مع ارفاقهِ المسجونين فعلى هذه الكيفية انقطع عن كل اتصال وحديث مع العالم الخارجي جاهلاً عند اول وهلة بالذنب المشتكى بهِ عليهِ وعالماً بما من شانهِ ان يحل بآلهِ وذويهِ من الانزعاج والاضطراب الفجائي وبالخراب

المستحيل الاصلاح العتيد ان يزعزع اركان اشغالهِ ويلقيها في الاختلال وسوء العاقبة . ثم يلتفت فيرى افواه العذاب مفتوحة حولهُ واهوال الموت تترصد افتراسهُ اذ لا مجير او نصير وهو بمعزل عن الرحمة والعدالة فلا بدع والحالة هذه ان غرق الاسير نفساً وجسداً بين تيارات الاحزان من اطالة اكدار هذا مقدارها او ان اولئك الذين لم يكن لهم سندٌ روحي في الرجاء الانجيلي يتجاسرون جهلاً على ارتكاب خطية قتل الذات المهولة . قال قسطنطين پوفيس دولافونيت احد علماء الاسبانيول الافاضل حينما كان مسجوناً في حكومة الامبراطور كرلس الخامس لوقوع الشبهة عليهِ باللوثيرية اه يالهي يالهي الم يكن بين السكيثيين والكانيبا ليين او الوثنيين من هو اشد توحشاً حتى سمحت بوقوعي بين هولاء المرَدَة المدعين بالمسيحية ثم ان السجن القذر غير المسموح بتنظيفهِ جلب عليهِ مرض الدوسنطاريا فتوفي بهِ وقال اوليدو المشهور بالمعارف والتقوى اذ كان في سجن اشبيلية ان ما كابدهُ من الضيق والمصاب من قباحة ورداءة السجن تفوق اهوالهُ سائر العذابات المحتوم عليه تجرع غصصها . وقد كان بين من امسوا ضحية لصغر النفس والياس امراة تسمى جوانا شانسيز سجنت في مدينة فالادوليد تحت تهمة البدعة فقتلت ذاتها بواسطة المقص وايضاً احد الاطباء قتل نفسهُ في سجن مادريد بواسطة مقص الشمع هذا ولنا اخبار جمة من نظائر ذلك

ثم بعد انقضاء الزمان المحتوم يوتى بالمشتكى عليهِ للمثول امام الديوان لاجراء واجبات الفحص واذ ذاك يعرضون عليهِ الاسئلة بكل دقة باسلوب منطوٍ على المكر والمخاتلة بحيث يسدلون على ابصارهِ حجب الظلام والالتباس حال كونهِ جاهلاً بحقيقة تهمتهِ ثم يغوونهُ بقسم على الاعتراف او على الاقل يلحون عليهِ ان يسلم بارتكاب جنايةٍ يجرعونهُ لاجلها كاس العذاب الى اخر نقطة من مرارتهِ . اما القضاة اللابسو اثواب وظيفتهم الرسمية فيجلسون تلقاء بعضهم وجهاً لوجه ثم يناجزونهُ بالسوال عن حسبه

ونسبهِ وعمن احضر من اسلافه امام تلك المحكمة وعن كنية املاكه واسماء انسبائهِ وتاريخ حياتهِ السابقة وعن ظنهِ من جهة الاسباب الداعية التفتيش لان يقبض عليهِ فينبغي والحالة هذه ان يورد تعريفاً مدققاً عن المسائل المشار اليها وان يسرد كل عمل وحادثة من حياتهِ باسرها . ثم يهد متقدمو التفتيش السبيل للحصول على غاياتهم الشريرة باستعمال التمليق والملاطفة توطئة للتمكن من ايقاعهِ في الاشراك بواسطة اقرارهِ فان لم يفوزوا بالنتيجة المرغوبة يلجئون الى اسلوب اخر تشمئز منهُ نفس كل مسيحي حقيقي اتصف بالصدق والاستقامة . لاجرم ان معاملة كهذه جديرة بالالتفات لانها تبين روح الكنيسة الباباوية وما اتصلت اليهِ من السيادة المطلقة فليتامل القاري بالجملة التابعة المقتبسة من نظامات نقولا ايمريك المشار اليهِ انفاً . وهي اذ يتهم الاسير بذنب البدعة ثم يصرّ بعناد على انكارها ولا يتمكن الديوان من اثبات جنايتهِ فليأخذ المفتش سجلات الدعوى في يدهِ او ما امكن الحصول عليهِ من القراطيس الاخرى ثم يتفرس بها متظاهراً بانهُ تمكن من الوقوف على حقيقة الذنب المدوَّن بها وصحتهِ وانهُ يرغب مبادرة المشكو عليهِ للاقرار بذلك على الفور ثم ليقل الفاحص للاسير كمن في حالة التعجب امن الممكن انك تظل مصراً على ما اشاهدهُ تلقاء عيني ثم ليتكلف القراءة بضعة دقائق ثم يطوي الورقة لئلا يقف الاسير على ادنى شيء من الحقائق وحينئذٍ يلتفت اليهِ قائلاً لها ان الامر مطابق كل المطابقة لما ابديتهُ فلماذا تنكرهُ اذن حال كونك تعاين الماثل بالقضية كلها . واذ يحصل المفتش على فرصة ليدبر طريقة لادخال احد من اللغفاء في حيز معاشرة المتهوم او احد المبتدعين المرتدين متظاهراً بكونهِ لا ينفك مصراً على بدعتهِ وانهُ انما ارتدَّ لاجل مجرَّد الفرار من القصاص ماكراً بالمفتشين فحالما يثق باركانهِ ينطلق الى سجنهِ بعد الظهيرة ويواصل الحديث معهُ الى الليل ثم يستمر جالساً عندهُ محتجاً بكونهِ قد تاخر عن العودة الى منزلهِ وحينئذٍ يلح عليهِ بكشف مكنونات حياتهِ وتفاصيلها وفي الوقت نفسه ليخبرهُ

هو ايضاً ما هو من هذا القبيل وليقف عند الباب في اثناء ذلك جواسيس ومسجل لتدوين التقارير الجارية بينهما وقتئذٍ ضمن جدران السجن . او الصورة الاتية ليحصل الفاحص على احد لغفاء الاسير او على من هو مرتدّ الى الايمان الحقيقي او على من يعلم عدم اشتباه المسجون بصداقتهِ وليسمح للشخص المومأ اليهِ بالدخول والتكلم معهُ وان احوج الامر ليتكلف القول بانهُ من طائفتهِ وانهُ انما ارتدّ خوفاً خادعاً الفاحصين فاذ يثق بهِ المبتدع ليذهب الى سجنهِ في احد الايام مساءً متظاهراً بانهُ لم يعد قادراً على الانصراف نظراً لتاخر الوقت ليتمكن من المحادثة معهُ واظهار ما عندهُ من مبادلة الحاسيات حتى يفوز بالوقوف على اسرارهِ واذ ذاك تقف جواسيس في مكان مناسب خارج جدران السجن لتسترق سمعاً وتدوّن سائر المباحثات والاحاديث الجارية بينهما وان اقتضى الامر ليكن بينهم احد المسجلين . حقاً لقد صحّ عليهم قول الشاعر بخصوص اللورد بيرون اهذه هي نسيات سماوية ام سموم جهنمية

ومع انهم سمحوا في بعض الاحوال للمحامي المتشرع باعانة المشتكى عليهِ انما تحت ظروف تجعل نجدتهُ قليلة الفائدة اذ لم يكن مسموحاً لهُ بفحص اوراق الدعوى ولا بالمخابرة مع الاسير الاّ في حضرة المفتش وقد ارغموهُ على تادية وعد مبني على ان محاماتهُ انما تقتصر على عدالة الدعوى وانهُ ان اعتقد بذنب موكلهِ يكف عن المحاماة مبلغين اياهُ خلاصة مقاصدهم المنطوية على رغبتهم الكلية بايقاع القضاء على الاسير . ولم يكن يرخص للمسجون المومأ اليهِ بمناقضة الشاهد عليهِ او دحض شهادتهم بل سوغوا لهُ تقديم جدول يحتوي على اسماء من يشتبه بسوء طويتهم من نحوهِ واسماء من يظن انهم يشهدون معهُ فهذه الواسطة كانت تحمل الفاحص على ان يتشبث بباب جديد يلج فيهِ للحصول على مصادر اخرى تمس الاسير واخرين غيرهُ . ولم يمكنوا الاسير من الحصول على صورة دعواهُ خطاً لئلا تذكرهُ مطالعتها بما من شانهِ ان يقدمهُ من الاحتجاج والبراهين لتبرئة نفسه بل

كانوا يتلونها عليهِ في حضرة الفاحص ثم يطلبون منهُ جواباً بديهيًّا عن صدقها او كذبها . ثم ان اشتدت الشبهة الواقعة على المشكو عليهِ ولم تتكفل الوسائط المذكورة باستخراج الاقرار المطلوب او ان ابدى مناقضةً او ارتباكاً في الاجوبة يلتجئون الى استعمال العقوبات التابعة نقدم عليها هذه الملاحظة وهي ان مكان العذاب في الديوان الاسبانيولي مخدع تحت الارض لايدخلهُ شيء من نور النهار يحتوي على مائدة جالساً عندها المفتش والناظر وكاتم الاسرار اما الجلاَّد فمن الاعوان الضرورية في هذا المحفل المخيف متسربلاً باثواب سوداء تحاكي ما نعاينهُ الان في رومية من ملابس التائبين مغطى من الراس الى القدم يكاد لا يظهر من وجههِ شيء لولا ثقبا البرقع المتصل بقلنسوة اللذين كان يتمكن بواسطتهما من النظر والتفرس واذ علم ذلك نعود فنقول . انهم ياتون بالاسير الى حضرة هولاء الاعوان والآلات العذاب المعدة هناك بلسان الحال تتهددهم باهوالها المرعبة ومنظر هولاء الاغوال المكشرين عن انياب الموت الاحمر يضيف ويلاً ترتعد لهُ الفرائص فتاخذ المخاوف في ان تستولي عليهِ استيلاء لامزيد عليهِ وحينئذٍ يشرع المفتش بارغامهِ على الاقرار بالواقع اقرارًا تاماً خالياً من الكتمان فان لم يبادر للقيام بذلك حسب المرغوب يجردون الاسير المنكود الحظ من ثيابهِ باسرع زمان ثم يكررون عليهِ التحذير والتنبيهِ اخر مرة اخذين اياه جانباً لزيادة التمكن من استجلابهِ فان لم تفِ الوسائط المذكورة بالمرغوب ياخذون بالتعذيب مبتدئين من العذابات المنخفضة الى ان ينتهوا تدريجاً الى ما تفوق الامها ادراك العقول البشرية ووصف الواصفين . ثم يلقون على الاسير في اثناء ذلك مسائل شتى ليس من نحوٍ فقط بل من جهة كل من وقع الاشتباه بكونهم من شركائهِ فان عجز المفتشون عن الاتيان بهِ الى الاذعان يرونهُ الاتٍ عذاب اخرى متهددين اياه باجراء غاية الصرامة ان استمر مصرًّا على عنادهِ هذا والمسجلون يدونون الاجوبة بكل تدقيق . اما في بعض المقاطعات فلم يكن مسموحاً باستعمال الاسئلة

التعذيبية للاشراف . ان من ابواب العذاب الجارية عند القاء الاسئلة ما يأتي تعدادهُ مقدمين عليها هذه الملاحظة وهي انهم يعرون الاسير بدون اعتبار الحشمة والادب والجنسية خالعين عليهِ سروالاً كتانياً ضيقاً واما ذراعاهُ فتستمران مجردتين فالنوع الاول عذاب البكرة وهو انهم يعلقون الاسير بسقف الحجرة ويداهُ مشدودتان خلفهُ وموثقتان بحبل يرفعهُ عن الارض ثم يربطون بقدميه المدلاتين عياراً ثقيلاً وزنهُ احياناً ثمانية عشر رطلاً ولا خفى ان مجرد ارتفاع الجسم الانساني على هذه الكيفية كافٍ لان يخلع مفاصل البدن على انهم في بعض الظروف لم يتر ددوا عن ان يزيدوا هذا العذاب صرامةً . وفي بعض الاحوال اذ يكون الاسير معلقاً على هذه الصورة يجلدونهُ على ظهرهِ جلداً عنيفاً واحياناً يفلتون الحبل فجاةً فينحدر العيار بلمحة بصر الى الارض دون ان يمسها الجسم فهذه الصدمة الشديدة من شانها ان تخلع مفاصل الاطراف بالام متناهية في القوة اما الكاتب فيدون في اثناء ذلك تفاصيل العملية المذكورة تدقيقاً كثقل العيارات المشدودة على الجسم وكمية المرّات المتكرر بها ايثاقها وطول مدة تعلق الاسير على هذه الحال . اما النوع الثاني من العذابات الاصلية فتسمى بعذاب النورج وذلك انهم يبسطون فريستهم على صفيحة خشبية ذات عوارض نظير السلم او بعارضة واحدة فقط على هيئة الصليب يستقر عليها ظهر الاسير استقراراً مولماً ثم يشدون اجزاء جسدهِ اللحمية اي الذراع والفخذ والساق بالامراس شداً محكماً بقضيب يبرمونهُ برم البرغي فتخرق الامراس في الاغشية الافرازية حتى الى العظم ثم يتعلق بهذا العذاب المسمى عندهم بالحصان الخشبي اخر اشد هولاً مما تقدم وهو انهم يلفون قطعة رقيقة من القماش على فم المعذَّب وانفه تكاد لا تمكنهُ من التنفس ثم يسكبون في حلقومهِ جدولاً من الماء كميتهُ سبعة ليترات (سبع طاسات) لاحداث حاسة الغرق او الاختناق ثم يدون المسجل تفاصيل هذا العمل حتى مقدار الماء المصبوب فلا يكادون يرفعون القماش الخارق في جسم

المعذب الاوتراه مضرَّجًا بالدماء على ان رفعهُ لم يكن الاتجديدًا لالم العذاب المذكور . واما النوع الثالث الاصلي فهو عذاب النار وذلك انهم يدهنون رجلي الاسير جيدًا بالشحم او الزيت ثم يضعونهما في مقطرة ويعرضونهما لحرارة الفحم المشتعل فهذا العمل سموهُ عذاب الشيّ بالحياة وقد كان مقصورًا في الغالب على ايطاليا وممارسًا على المشوهين خاصةً الذين يصعب اجراء العذابات الاخرى عليهم فلما يزداد الالم اشتدادًا يعطونهُ راحة برهة من الزمان بوضع لوح فاصل ثم يحثون الاسير على الاقرار فان ابى ذلك اولم يستطع القيام بهِ يعودون الى العمل المذكور وناهيك ما بذلك من الالم والقساوة البربرية الفائقة على اعمال الوثنيين وشرورهم ومع ان هذه هي العذابات الاصلية فقد افتخر التفتيش بكثير غيرها منها انهم ينقطون احيانًا مقدارًا عظيمًا من الماء نقطةً فنقطة على المنكود الحظ او يغلفون الجسم بثوب كتاني يشدونهُ شدًا محكمًا حتى يكاد يخرج بروحهِ من شدة العصر ثم يحلونهُ بغتةً فيصدر من هذا التغيير الم لا يطاق او يربطون حول الاصابع خيوطًا قوية ربطًا متينًا الى ان ينفجر الدم من تحت الاظافر ومنها انهم يسندون الجسم على الجدار بنوع متوازن ثم يوثقونهُ بهِ بالامراس وثاقًا متينًا للغاية ثم يرفعون اللوح من تحت المعالم فيبقى الجسم معلقًا بالامراس فقط على الكيفية المذكورة . فليتمعن القاري بجسامة هذه الالام وليحكم لنفسهِ ومنها انهم يضعون سلمًا بعوارض مصنوعة من الخشب المسنن على جلد الاسير ثم يدقونهُ بالمطرقة دقًا شديدًا فيصدر من ذلك الام لا تقوم بوصفها الاقلام ومنها انهم يلفون حبالاً على زندَيه ثم يلفها الجلاَّد على ظهرهِ شادًا بكل جهدهِ ومستندًا الى الامام حتى ينفصل لحم ذاك المنكود الحظ عن بدنهِ وقد اجروا العذابات الاخيرة المذكورة على انسان يهودي اسبانيولي يسمى اوريبو وهو بلغ الحوادث المذكورة الى ليمبورش

ان احد العذابات الايطالية كان قائمًا من مكعبين حديديين جانبها

الواحد مجوف يربطونها بشدة على الكعب ثم يدخلونها بواسطة البرغي في اللحم واخر يسمى عذاب الهراوة يقوم بقطعة خشب صلبة يضعونها بين الاصابع ثم يربطون اليد ويشدون الاصابع على بعضها واخر مولم للغاية يقوم بوضع الاقدام في قالب من حديد محمى لم يستنكفوا ان يضعوه حتى في اقدام النساء . اما لورانت فيصف عذاباً شوهد في مادريد سنة ١٨٢٠ ربما تفوق اهواله على ما تقدم وهو انهم يضجعون الاسير على ظهره فوق مائدة واسعة بين عارضتين محفورتين من جانبيها ثم يوثقونه بهما ويعلقون فوقه رقاصاً ذا نصاب حاد موضوع على كيفية من شانها ان تزيده طولاً عند كل حركة فكان المنكود الحظ يعاين آلة الهلاك هذه تهتز فوقه ذهاباً وايباباً وفي كل لحظة يزداد النصاب القاطع اقتراباً الى ان يمزق جلدة انفه ثم ياخذ في التقطيع تدريجاً حتى يعدمه الحياة بالكلية هل يمكن للعقل البشري ان يتصوّر اثراً مدركاً لديانة المحبة والاحسان عند تاملهِ بهذه الاعمال الفظيعة . قال لورانت عند تكلمهِ عن موضوع العذاب انني لااصف انواع العذابات المختلفة القائم باجرائها التفتيش لان هذا الموضوع كتب عنهُ مورخون كثيرون انما اقول انهُ لا يمكن ان يحكم بالمبالغة على واحد منها وقد قرات عن كثير من هذه الاعمال فطعنت اهوالها احشائي تشفقاً واشمئزازاً ولااستطيع ان اعتبر المفتشين باكثر من برابرة متعطشين الى الدم البارد بل اقتصر على ان اضيف قائلاً ان الرئيس طالما كان يحتم بعدم تكرار العذاب بالطريقة نفسها . اما المفتشون فلم يعجزوا عن ايجاد الوسائط السفسطية لابطال التحتيم المشار اليه بتسميتهم الكف عن العذاب توقيفاً الامر الذي انما اضطروا اليهِ طبعاً نظراً للخطر المصاب بهِ الشهيد من جراء امكانية موتهِ بين ايديهم وعلى هذا يانف قلمي من تقرير وقائع هذه الاهوال لانني لااعلم شيئاً ينافي روح المحبة والشفقة اللتين يوصي بهما يسوع المسيح في انجيلهِ اعظم من سوء تصرف هولاء المفتشين . ومع ان العار الذي الحقتهُ هذه الاعمال بالديانة

المسيحية اعظم من ان يجد لا يوجد بعد العصر الثامن عشر شريعة او حكم يامر بالغائهِ

ان هذ الملاحظة الاخيرة خاصةً جديرة بالالتفات لانها تتعلق جدًا بالمحاماة التي تحاول اعوان الكنيسة الرومانية ان تقدمها عن التفتيش لان البابا وبين طالما انكروا تعلق اثم الايام الماضية بالحاضرة محاولين بسياستهم المبنية على مغايرة الحق تبرير وتلطيف قباحة اعمال كان الاليق بهم تجنبها. قال احد الكتّاب في ايرلاندا في جريدتهِ المسماة دوبلين ريفيو سنة ١٨٤٨ محاميًا عن التفتيش ان العذابات التي اجراها ديوان الفحص لم تكن باعظم من العذاب السياسي المعروف بالالم الصارم وما حاكاهُ من قصاصات الاعصر المظلمة ولا تخفى ان دحض هذا البرهان من الامور البديهية لان كل من تجاسر على تبرير تلك الاعمال البربرية يلطخ نفسهُ بالعار والفضيحة ويصير عرضة لانتقاد العقلاء وازدرائهم كيف لا والعقاب المذكور وكثير غيرهُ مما يضاهيهِ هولاً وشدةً قد اندرس وانمحت اثارهُ بانتشار انوار المعارف وترقية احوالها حال كون لنا ادلة شتى على استمرار عذابات الفحص الوحشية حتى الى نفس العصر الحاضر ومن يتمعن ياترى بهذا النظام المنطوي على تلك الافعال الاثيمة البربرية الممارسة تحت ظلال الصليب وباسم المخلص ولا يتقهقر مشمئزًا وابن من يحتمل استماع تلك المحاماة والادعاآت السخيفة الامن طمس الجهل والغرض على بصرهِ وبصيرتهِ واعدماهُ الرشد والصواب

وكان يحدث كثيرًا ان الشهيد الصائر مطمحًا لابصار الفاحصين يتمكن من الوقوف على الوسائط المقصود استعمالها لالقاء القبض عليهِ فلئلا يحملهُ ذلك على الفرار والتخلص يستدعونهُ للمثول امامهم بوقت معين فان ابى من اطاعة اوامرهم الفعالة يعلنون بانهُ صار محرومًا وعاصيًا وليس هذا فقط بل لم تشا تلك الكنيسة الكاذبة ان تفلت تلك الفريسة من مخالبها وتيأس من ارواء ظماء انتقامها فلذلك تكمن للشهيد

متجسسةً بما انطوت عليهِ من الدهاء والمكر كل منزل وشعب ومفرق لايقاعهِ في الاشتراك فان عجزت عن الوصول الى المقصود بحملها الغيظ وحب الانتقام على المبادرة الى هتك ذكرهِ وصيتهِ ووسمهِ بالعار والفضيحة الامر الناتج عن الضعف والتوحش على ان ضبط امواله كان من القصاصات المحتومة التي لامفرَّ منها . ثم ان لم تقم البراهين باثبات التهمة على المشكو عليهِ لم يبررونهُ من الذنب بل يصرحون بتحريرهِ وقتيًّا من التهمة الحاضرة ولم يكن هذا النظام المسمى دينيًّا يفتخر اقلهُ بتبرير من وجدهُ سالمًا من الذنوب الموهومة ولان يستحسن ذلك ويسر بهِ لان التفتيش بمعزل عن شبه الصفات الكريمة ومع انهُ لم يكن احيانًا في وسعهِ الاصرار على التخطية لم يبرَّر مطلقًا وناهيك ما بذلك من الخبث والجفاء . ثم ان هذه الاجراآت باسرها كانت مستورة تحت حجاب الكتمان الكلي قال ڤرالويس من ليون الذي سجن بامر التفتيش انني اشعر بالالم ولكنني لا اقدر ان ارى اليد الضاربة وهيهات ان اجد مكانًا يحميني او يظللني . ثم ان وُجد المشكو عليهِ مذنبًا فلا بد ان تكون دعواهُ من احدى مراتب ثلاث يقابلها ثلاث درجات من القصاص الاولى الذنب الخفيف وقصاصهُ الانكار والارتداد علنًا ثم القيام بالفروض والقوانين البيعية والثانية الذنب الاشد جنايةً وقصاصهُ السجن الدائم والعرض في احتفال الاوتودافيه (اي عمل الايمان وسياتي الكلام عنهُ) والخضوع لقضاء الديوان الخالي من الرحمة والثالث الذنب المتناهي في الشدة بحسب زعمهم وقصاصهُ الاحراق بالحياة في الاحتفال المذكور

ثم كانوا يصرحون بعدم اهلية المبتدع للحصول على ميراث مطلقًا غير انهم قد يوزعون معاشًا جزئيًا على اولاد من يضبطون اموالهُ وقلما كانوا يراعون حقوق الزوجات والارامل ولم يعتبروا المرتد عن بدعتهِ اهلاً لاسترجاع اموالهِ ثم ان كان ذنب الوالد ثقيلاً فمن شانهِ ان يشين عائلتهُ وذريتهُ ويسمها بالعار والاهانة . اما السجن الدائم فاجروهُ في حبوس

تتفاوت درجات صرامتها بحسب طبيعة الذنب الموهوم

وقد حان الزمان لان نصف ذلك المشهد الهول المذكور اذ يقاد المبتدعون المنكود والحظ الى النطع والاحراق على منوال من شانهِ ان يحاكي دينونة اليوم الاخير محاكاة يمجها الذوق السليم وتعافها الاطباع المستقيمة وهو ما تسمى با لاوتودافيه (اي عمل الايمان) الذي اشرنا اليهِ انفاً فان اقتصر القضاء على مذنب واحد فاسمهُ اوتيللو (اي العمل الصغير) واما ان اشترك معهُ اسرى كثيرة فيبادرون لاقامة موكب احتفالي شهير منطوٍ على الرونق والعظمة التصنعية . وهو انهم يختارون لاجراء المشهد المذكور يوماً من ايام الاحاد او الاعياد ثم ينشرون اعلاناً ما لهُ انهُ في الوقت الفلاني والمكان الفلاني يصير تقديم تشخيص حيّ للدينونة الاخيرة ثم يرسلون الى الولاة والحكام اعلاناً مفادهُ ان الرؤساء الروحيين يسلمون اسرى التفتيش في اليوم الفلاني الى ايديهم ويمنحون غفران اربعين يوماً لمن يأتي ويشاهد الاجراآت العتيدة ان تحدث . ثم يحملون في اليوم السابق على الاحتفال الى مكان العذاب علبقة الايقاد وينبه متوظفو الفحص ان لا يتقلد احد سلاحاً او يسوق عربة في الشوارع حتى نهاية هذا الفرض المقدس . ثم يجتمع في مساء هذا النهار الى مقر التفتيش طغمات الفرق المختلفة ثم ينطلقون الى مكان الاحراق مرتلين وحاملين نعشاً مغطى وبعد ان ينتهوا الى المحل المذكور يرفعون من التابوت صليباً اخضر ينصبونهُ على المذبح المقام لهذه الغاية ثم يضعون حولهُ شموعاً عظيمة بيضاء ويتولى الدومينيكيون والجنود حراسة المذبح في اثناء الليل . وفي صباح يوم العذاب باكراً ياتون بالشهداء جميعاً محلوقي الرؤوس ومتسربلين بالملابس المفروضة دون ان يطلع احد منهم على كيفية القصاص المقضي بهِ عليهم حتى المساء السابق . اما الاثواب المعينة لهذا الاحتفال فتختلف بحسب تفاوت درجات الذنوب منها الاسود البسيط للذنوب الخفيفة والاصفر المخطط بالتقاطيع المختلفة حسب امتياز درجات ذنوب الاسرى للثقيلة والاصفر البسيط

للمرتدين عن البدع . اما الواقع عليهم الاشتباه كثيرًا فيتسربلون بالحلة نفسها مضافًا عليها رسم نصف صليب واما المبتدعون الاصليون فصليبًا كاملاً واما التائبون قبل النطق بالقضاء فصليبًا احمر . ويضعون على راس الجميع قلنسوة مخروطية تسمى كوروزا واما التائبون بعد القضاء فتتميز اثوابهم برسم لهبات متعاكسة يعلوها رسم النصف الاعلى من الانسان واذ ذاك يقدمون الامانة بالخنق على الاحراق بالحياة واما ان اصرَّ المبتدع على ذنبهِ فيصورون اللهبات منتصبة ثم يرسمون على الاثواب المذكورة والقلنسوة المخروطية صورا بالسة وحشرات الخ ثم يضعون امام الاسرى فطورًا فاخرًا يا بي اولئك المنكود والحظ مناولتهُ طبعًا فيصير نصيبًا لادنيا الاعوان . ثم قبل مبارحة الشهداء قصر التفتيش ياخذونهم على انفراد الى حجرة خصوصية حيث يحثونهم المرة الاخيرة على التوبة والمصالحة مع الكنيسة

ان ترتيب الاوتودافيه وطقسهُ يختلف بحسب الازمنة والظروف اما نحن فنصف احتفالاً واحدًا ونستخدمهُ دستورًا للبقية فالاحتفال الذي سنذكرهُ حدث سنة ١٦٨٠ في مادريد بحضور الملك كارلوس الثاني وزوجتهِ على الكيفية الاتي بيانها

انهُ عند الساعة التاسعة صباحًا شرع جرس الكنيسة الكبرى ان يدق ثم اخذ الموكب بالتقدم اما جنود التفتيش فكانت قد مهدت الطرقات واوسعت مجالاتها واذا بالقسوس اتت اولاً يجللها الكهنوتية يتقدمهم الرهبان الدومينيكيون حاملين راية التفتيش المختصة بالاسبانيول وهي صليب اخضر على ارض سوداء يتبعهم مائة وعشرون اسيرًا البعض احياء حقيقية مشدود والفم لئلا يتفوهوا بكلام مضر لاسماع المتفرجين والبعض وهم ممن لم يتمكنوا من القاء القبض عليهِ تحمل صورهم الاعوان على عصا طويلة اما الاقل جناية من الاسرى فمشرف بالتقدم يتالف الجميع من ثمانية واربعين رجلاً واثنتين وسبعين امراة الامر الدال على ارجحية تستحق

الالتفات . وقد اصحبوا الصور المذكورة بصناديق تحتويه على عظام المبتدعين المائتين اما الشهداء هولاء فكانوا متردين بالاثواب المار ذكرها المسماة بالسامبينيتو وعلى رؤوسهم القلنسوة المعروفة بالكوروزا يرافق كلاً منهم اثنان من الرهبان يعذبان الاسير بالتقريع والتعنيف ويعرضان عليهِ المواعيد التمليقية والتقدمات التي لم يكن يلتفت اليها او يكترث بها . ثم كان يلي الموكب المذكور الحكام المدنيون وقواد المملكة ورئيس زعماء تفتيش مادريد واعوان هذه الطغمة على خيل مزينة بزينة فاخرة ثم متوظفو الكنيسة وخدامها ومرقي ايراد محكمة توليدو التفتيشية حاملاً راية الايمان الخ . واخر الكل المفتش العام راكباً على جواد اشهب فاخر ذي سرج وبردعة ارجوانية مزينة باشرطة وحواشٍ من نفس اللون المذكور ومحاطاً باثني عشر نفراً من الحشم والاتباع ومصحوباً بحرس مؤلف من خمسين راجلاً لابسين اثواباً من الاطلس الاسود مزينة بشرائط وكشكش يخفق على برانيطهم ريش الطيور الاسود يتولى رياستهم ماركيز دوبوبار الممتاز بالحاماة عن فحص توليدو وقد كان الموما اليهِ يعلو متن جواد ازرق بسرج مرصع بالفضة والنقوش يتلامع بالوان بيضا وخضراء تناسب ملبوس اتباعهِ متوشحاً ببدلة من الحرير الاسود مطرزة بالفضة تسطع بالنياشين والسمات والازرار الالماسية يشملهُ ثمانية عشر شخصاً من الاتباع . قال اولموان قد صار اتمام الاحتفال المذكور بغاية السكون والهدو

اما مرسح هذا الاحتفال فكان مبنياً على الكيفية الاتي بيانها وذلك انهم نصبوا دكةً من مواد اتوا بها وقتياً في شارع فسيح ثم بنوا في صدرها ثلاثة صفوف من الاروقة مرتفعةً عن بعضها ارتفاعاً متوالياً وغطوها باقمشة ملونة لتخيم عليها من التاثيرات الجوية اما عرش جلالة الملك وعرش الملكة فكانا تجاه الايوان الادنى تلقاءهما ميدان فسيح ومجاذيهما على الجانبين مقاعد متركبة من طبقات متناسقة الجانب الايمن منها معد لجلوس

الحكام والولاة السياسيين يعلو ذلك عرش المفتش العام واما الجانب الاخر فللاسرى المرتفعين عن بعضهم ارتفاعاً يوازن جسامة ذنوبهم. واما المذبح فكان قائماً تلقاء العرش الى الجهة اليمنى عند اسفل ايوان المفتش وقد كان في الميدان الملاصق لعرشي الملك والملكة حجرتان احداها لجلوس الحرس الملكي والاخرى لعيال المفتشين واما المنبر فكان منتصباً في النادي المتوسط بينهما تجاههُ مكتبتان مختصتان بالمسجلين القائمين بتلاوة القضاء وتحت يقف عليهِ الاسرى لتلقي الحكم الاخير وقد زينوا المرسح المذكور بزينة فاخرة من المعلقات القرمزية قال اولموان الله حرّك قلوب العملة في هذه الحادثة الشهيرة على كيفية مكنتهم من غلبة الصعوبات المعترضة عند اجراء العمل بدليل اتيان ستة عشر نجاتاً مع فعلتهم والاتهم ومواد البناء خلوّا من استدعاء ليقدموا خداماتهم الى ناظر الاعمال ثم واظبوا بغيرة حارة وثبات على القيام بالبناء حتى انهم كانوا يعودون الى الشغل بعد مناولة الطعام الضروري بكل سرور وابتهاج دون ان يمتعوا بالراحة الاعتيادية ثم لما سئلوا عن داعي حرارتهم هذه اجابوا قائلين ادام الله ايمان يسوع امداً مديداً سيكون الجميع معداً في الوقت المعين واذا نقص شي من الاخشاب والمواد اللازمة سنهدم منازلنا عن رضى وطيب نفس للقيام باتمام غاية مقدسة كهذه

ثم لما تبوا المحفل الملكي في مجالسهِ المعينة صار عرض الاسرى امامهُ وتلاوة القسم على الملك بانهُ سيحامي عن الايمان الكاثوليكي الذي تتشبث وتومن بهِ امهُ كنيسة رومية الرسولية وانهُ يضطهد سائر المبتدعين والجاحدين المضادين للايمان المذكور ويامر باضطهادهم ويسلمهم الى طغمة الفحص المقدسة ويامر بتسليمهم اليها وانهُ يقدم الى اعوان هذه الطغمة وماموريها كل معونة وحماية تتكفل بالقاء القبض على هولاء المبتدعين مكدري الديانة المسيحية خلوّا من قصور اواهمال. ثم صار القيام بفروض القداس وتقديم القسم الى والي مادريد والشعب الحاضر

ثم صعد احد الوعاظ المشهورين من طغمة الدومينيكيين الى المنبر وكرز بالعظة الاتية المبنية على عنوان التفتيش وهو قم يارب واقضِ في دعواك وكنا نرغب ان ننزه المطالع من تلاوة هذا التجديف الفظيع لولا كونهُ جزءًا من نظام التفتيش ولا ينبغي ان نكتم تفاصيلهُ اما ما هذر بهِ هذا الواعظ فهو

ليحفظك الاله ايها الديوان المقدس الى اجيال غير محدودة على كيفية من شانها ان تجعلنا راسخين في الايمان ويضاعف قصاص اعدا الله فعنك اقول ما قالهُ الروح القدس عن الكنيسة انتِ جميلة ياحبيبتي كخيام قيدار فما هي ياترى هذه التمثيلات والتشبيهات وما هو هذا المديح او ما هي هذه المقابلة الكلية التي تشبه امراة لطيفة ذات جمال فائق بخيام قيدار ان القديس جيروم قد اكتشف مكنونات هذا السر قائلاً انهُ اذ كان شعب قيدار مولعًا بالصيد والقنص سرَّ بهِ سرورًا لامزيد عليهِ ولذلك كان ينصب خيامهُ في البقاع والروابي والوهاد حيث يتمكن من الفوز بمرامهِ ناشرًا بها جلود الحيوانات المصادة ومعلقًا عليها رؤوس الوحوش الضواري والقنائص دليلاً على بسالتهِ ومهارتهِ باستخدام الاسلحة فعلى هذا كانت هذه القبيلة على جانب عظيم من الافتخار والتشبث بالغنايم معتبرة اياها الزينة العظمى . فهذا كان اسمى جمال خيامهم ومن ثم شبه الروح القدس محاسن الكنيسة بهذه الخيام وهذا التشبيه نفسهُ يصدق على ديوان توليدو المقدس العتيد ان يقتل هذه الوحوش الضارية الممقوتة اعداء الله التي نشاهدها الان في هذا المحفل ويحسب ذلك مجدًا وافتخارًا (الويل للذين يقولون للشر خيرًا والخير شرًّا) اما البعض فبواسطة نزعنا الحياة من ضلالاتهم نصالحهم مع ايماننا المقدس ثم ناتي بهم الى الندامة عن ذنوبهم واما البعض الاخر فبواسطة قضائنا عليهم لنصليهم في الاراء المخرفة بالالقاء في اللهيب (فهنا يقول الخطيب مقرًّا علنًا بدون ادنى كتمان ان التفتيش قد قضى بالاحراق في اللهيب) ليفارقوا الحياة الجسدية واما انفسهم المعاندة فتنطلق فورًا لتكابد عذاب الجحيم . فعلى هذه الكيفية ينتقم الله من اعدائهِ

الالدّاء ويرتدع الاخرون مرتاعين مما يعاينونهُ من قصاص هولاء القوم واما الديوان المقدس فيستمر منتصرًا مظفرًا ونحن انفسنا اذ نزداد رسوخًا وتأصلاً في الايمان المصحوب بالنعمة والاعمال الصالحة نكون اثبت شاهد لمجد الديانة المسيحية

ثم لما انتهت العظة المذكورة وتلاوة المحاكمة والقضاء الذي استغرق بالجمهور الى الساعة الرابعة بعد الظهر جردوا البعض من الاسرى الاكليريكيين من ثيابهم باحتفال عظيم ثم سلموا هذه المحرقات الى الحكام طالبين اليهم برياء وتمويه ومخاتلة ان يعاملوهم بالحنو وان لا يكسروا من اجسادهم عظمًا او يريقوا دمًا. اما القاضي فكان قد سبق واطلع على عدد الاسرى العتيدة ان تكون وقودًا للنيران وجهز سائر الاستعدادات اللازمة للقيام باحراقهم واما مكان النطع فكان بقعة اقيمت لهذه الغاية وهي دكة من الحجر مساحتها ستون قدمًا مربعًا وارتفاعها سبعة اقدام وحينئذٍ بادر البعض من هولاء الشهداء والقوا بانفسهم الاتون الناري لعلمهم ان لا مفر من تجرع كاس المنون على هذه الكيفية فلم يلبثوا حتى الحقوا بهم البقية على الفور طارحين في اللهيب اجسام المقضي عليهم بالخنق قبل الاحراق مع صور وعظام من لم يقع بين مخالب معذبيهِ العتاة

ان من يتمعن بهذا الديوان الجهنمي واجراآتهِ لا بد ان يرتجف ويشمئز مما اتصل اليهِ من الظلم القبيح والنفاق الذي يحاكي اعمال الابالسة ويفوق على شرور البرابرة والوثنيين هذا مع غض النظر عن السلطة الموهومة المناقضة لروح الكتاب التي تنفث تحتها كنيسة رومية سموم الدواهي والرزايا ومع ضربنا صفحًا عما من شانهِ ان يهيج بكل من عندهِ ادنى ذرّة من العدل والانسانية حاسيات الغيظ والكدر من تستيرها اعمالاً فظيعة كهذه تحت رداء الديانة لان كل عمل من اعمال المحاكمة وتنفيذ القضاء ينبي صريحًا عن شدة قباحة الغرض والترفض . وناهيك ما اتصف بهِ ذلك المجلس من الخبث والدهاء بالنظر للتجسس والقاء التهمة

والكتمان المخيف وما اعتنتهُ من اعراض الارتباك والضعف البشري الامور التي من شانها ان توقع البري تحت الشبهة ولا سيما فيما بين مشاهد العذابات الجسدية المصحوبة بتاثير الالام العقلية الفعالة على افكار الشهداء المنكودي الحظ هذا علاوة على الياس من الحصول على نتيجة عادلة فيما يتعلق باسير لهُ من المبادي والمناقب الشريفة المبنية على التقوى والاستقامة ما يحرّك غيظ اولئك القضاة الظالمين فهذه الامور المذكورة وما شاكلها من البراهين الراهنة على ان جور تلك الكنيسة الكاذبة من اشد المصائب والنكبات المتحنة خدّام الله الحقيقيين وصبرهم ومن اعظم ما يكابدهُ الجنس البشري من اهوال السلطة المطلقة بل الآلة المتناهية في الشر التي يستخدمها المحال لاجراء غاياتهِ القتالة . اما تصريح كنيسة رومية ببراءة ايديها من سفك الدم فقد تبرهن على كذبهِ من كل صفحة من تاريخ التفتيش قال الدكتور جيدس هل يوجد في التاريخ باسرهِ مثالٌ دالٌ على استهزاء قبيح راسخ على الله والناس كالذي نراهُ في ديوان الفحص وهوانهم يطلبون الى الحكام السياسيين ان لا يميتوا المبتدعين ثم في الوقت نفسهِ يقضون عليهم ويسلمونهم لايديهم للاحراق وقال الدكتور شاندلر أمن الممكن ان نجد محاباةً ومواربةً اعظم وضوحاً مما نحن بصددهِ اي انهم يتصرفون في القتل فعلاً ثم يتكلفون لان يتوهم بهم الشعب الحيادة وعدم المداخلة في ما يكونون بالحقيقة اصلاً ومصدراً لاجرائهِ . لاجرم ان قيام الحكام والولاة باوامر التفتيش وقضائهِ لم يكن في الغالب الاَّ اجباريًّا لان اباءهم عن ذلك كان من شانهِ ان يعرضهم لقصاص الحرم المهول وعواقبهِ المخيفة ولم تكن عقوبة بربرية في ايام جهالة الاعصر المتوسطة الا ومارستها الكنيسة الرومانية المترفضة واعوانها التفتيشية

الفصل الثالث

التفتيش في اسبانيا

ان الحادثة الشهيرة الجديرة بالذكر في تاريخ التفتيش انما هي ادخالهُ الى اسبانيا سنة ١٢٤٢ لان الاجراآت الصادرة ضد المبتدعين لم تكن حتى ذاك الوقت الا من الامور المحتملة اما مجمع اليفرا فقد انكر حق مناولة ما يسمونهُ القربان المقدس على كل كاثوليكي يتعاطى الوشاية ولم تبلغ الشريعة الحاكمة على التعاليم المبتدعة الاَّ الى الحرمان من الاملاك والمنفى الابدي حتى ان الملك الفونزو الثاني الذي نفى شعب الفودوا من مملكتهِ اعفى الباقين من التشويه والموت . ثم انهُ في الوقت المذكور تسلم لعهدة بطرس كاردبريت من الرهبان الموطدين اقامة ديوان فحص في مدينة اراغون ممتاز بحماية الملك الخاصة وامر رئيس الاساقفة ان يوسس هذا المجلس في اقليمهِ ولم تنقضِ اربع سنوات من ذلك الحين حتى اصدر البابا منشورًا يامر بالشروع في هذا النظام المهلك في مدينة كاستيل فتلقاهُ الملك فرديناند بكل ترحاب لانهُ كان ممن توغل في الترفض والغباوة حتى انهُ لم يستنكف ان يحمل بنفسهِ الحطب المستخدم لاحراق المبتدعين . اما المقاومة التي ابداها الكاستيليون نحو هذا النظام فحالت دون نجاحهِ وامتدادهِ بحيث انقضت مدَّة من الزمان ولم يستقر بها هذا الديوان استقرارًا قانونيًّا . فاصل التفتيش الاسبانيولي الحديث انما يؤرخ من حين اتحاد الممالك الاسبانيولية تحت خلافة فرديناند وايزابلا وقد مهد افتتاح اقليم غرناطة سبيلاً لامتداد سلطة هذا الديوان الخبيث فاثارت اسبانيا

وقتئذٍ في جهات شتى عصياناً قوياً على تعاليم الكرسي البابوي واجراآته اما ضمير ايزابلا فكان مضبوطاً بقيود العبودية بواسطة كسيمنس وزيرها الذي كان من مشاهير رجال السياسة اصلهُ راهب من طغمة الفرنسيسكانيين ممارس زهداً مبنياً على انكار الذات على كيفية تضاد فساد اداب ذلك الجيل ثم ارتقى من وظيفة معلم الاعتراف الى رتبة اول وزير في المملكة . ومع انهُ قد شرع بالسعي في اصلاح الكنيسة خلافاً لنصيحة ادريانوس الرابع الجالس وقتئذٍ على السدة الحبرية آل بهِ الامر الى اتخاذ الوسائل الفعالة لابادة البدع من ممالكها وقد اسعفهُ على مرامهِ هذا ترفض ايزابلا وطمع زوجها . اما من صار اولاً هدفاً لنبال هذه الطغمة الشريرة فالامة اليهودية التي كانت قد كثرت في اسبانيا وتخلصت من اهوال الموت باعترافها الكاذب بالديانة المسيحية فاغتنم الرهبان الدومينيكيون الفرصة الناتجة من الكراهة المسببة عن ثروة تجار اليهود ومداينتهم بالربا والحسد المتجه نحو هولاء القوم لان يحركوا الملوك والحكام كي يجددوا التفتيش القديم تجديداً كاملاً فتعين الاب توما تورکويمادا المفتش الاول لهذا الديوان المنظم حديثاً وانتظمت مجالس اخرى تحت ادارتهِ يتراس عليها الديوان الاعلى القائم المومالهِ برياستهِ . ثم وضع المشار اليهِ بالارتباط مع روساء هذه المجالس نظامات هذه الطغمة وبنودها نذكر بعضها لانها جديرة بالتفات خصوصي نقلاً عما رواهُ لورانت في هذا الموضوع وهي

ان البند الثاني والثالث يصرحان بوجوب تعنيف من لم يشتكِ على نفسهِ في اثناء ثلاثين يوماً وتاديبهِ باقامة الحدود

والسادس ضرورة اجراء القصاصات البيعية على المبتدع التائب (اي الراجع عن بدعتهِ والحاصل على الحل) بحرمانهِ من كل الخدامات الشريفة ومن استعمال الذهب والفضة واللآلي والحرير والصوف الفاخر

والثامن وجوب مكابدة المعترف ببدعتهِ عقاب ضبط الاموال بعد

الفاظ النعمة

والحادي عشر والثاني عشر ان التائب في اثناء سجنهِ توبةً حقيقية ينبغي ان يحتمل السجن الابدي واما ان ظن المفتشون بانهُ قد نقض توبتهُ فيقضون عليهِ بالاحراق

والخامس عشر انهُ يسوغ اجراء العذاب على الجاني ولو كان ذنبهُ مبنيًّا على نصف برهان ولكن ان اقرَّ الاسير باثمهِ في اثناء العذاب ثم تثبت بهذا الاقرار فقصاصهُ قصاص المذنب الحقيقي غير انهُ ان نقض قولهُ فينبغي تجديد عذابهِ او الحكم عليهِ بعقوبة فوق العادة

السادس عشر لا يجوز ان يخبر المشتكى عليهِ بتقريرات الشهود مطلقاً

التاسع عشر ان لم يحضر المدَّعى عليهِ عند ما يستدعى الى المحاكمة يقضى عليهِ قضاء المبتدع

العشرون ان اقيم البرهان على انسان بعد وفاتهِ بكونهِ مبتدعاً يقضى عليهِ ثم يخرج جسدهُ من الضريح ويحرق ثم تضبط اموالهُ

الثاني والعشرون ان كان اولاد المبتدعين المحكوم عليهم دون السن عند موت والدهم يعطون حصةً من مال ابيهم بطريقة التصدق واما المفتشون فيقومون بمصاريف تعليمهم والاخير ان كل موضوع تعذر فهمهُ من هذه البنود يترك لبصيرة الفاحصين وحكمتهم

اما تورکويمادا فادخل النظام التفتيشي المبني على الشرائع المذكورة الى اراغون معيناً شخصين يسميان كاسبار جوكلار واربوبيه للقيام بادارة ديوان التفتيش. ثم لا ينبغي ان نغفل عن ذكر ما اختلج في افئدة الاراغونيين من البغض والكراهة نحو هذا الديوان التفتيشي والمقاومة التي ابدوها ضدًّا لهذا النظام وقد اضطرب كثيرون من ذوي المراتب السامية في القصر الملكي واغتاظوا من اجراآتهِ المبنية على الجور والعدوان ثم ارسلوا الى البابا والملك رسلاً يتضرعون اليهما قائلين ان شرائع اراغون تنافي سن نظامات جديدة تتعلق بضبط الاموال فكان توسلهم هذا كمن يضرب

في حديد بارد لانهُ بينما كان هولاء المعتمدين ينتظرون في قصر البابا والملك الحصول على الرحمة والعدالة صدرت الاوامر بالقاء القبض على كثيرين من العصاة واحراقهم فبادرت جنود الفحص للقيام بذلك على قدم الجد والاجتهاد . وحينئذٍ قرَّر اي الاراغونيين على ذبح هذين المفتشين المعينين حديثاً ووقع اختيارهم على اربوبيه ومع ان الموما اليهِ كان متدرعاً سرًّا بدرع من الفولاذ وواقياً راسهُ بخوذة من الحديد مستورة بقلنسوتهِ اصيب بجرح في نقرتهِ بينما كان آخذاً بالصلاة في الكنيسة توفي منهُ بعد يومين فاثبت بعد ذلك البابا اسكندر السابع طوباويتهُ واما فرديناد وايزابلا فشرَّفاه بضريح فاخر . فتطايرت الزنابير التفتيشية من اعشاشها للانتقام ممن توهموا بهم ارتكاب هذه الجناية او المساهمة بها ومن ثمَّ اضطرمت نار اضطهاد جديد على اولئك المنكودي الحظ قال لورانت ان احد اعضاء هذه المؤامرة اذاع اسماء المتعاهدين فكانت النتيجة حلول الدواهي والرزايا على اولئك الاراغونيين حتى كاد لا يوجد عائلة واحدة من ثلاث مراتب الاشراف سالمة من صروف الاوتودافيه (احتفال الاحراق المذكور انفاً) مترديًا بالثوب المختص بالتائب واما القتلة فقبضوا عليهم ومزَّقوا اجسادهم اربًا اربًا وزينوا باعضائهم الطرق والشوارع . ولم تكن اراغون وحدها من المقاومين لهذه المحكمة التفتيشية الحديثة بل حصل عليها مضادات اخرى عظيمة ولا سيما في مايوركا وسردينيا وحقاً ان عار التفتيش في اسبانيا وفي الاماكن الاخرى انما يستقر على المساعي الفعالة التي قام بها الرهبان الدومينيكيون بالنظر لتاسيسهِ

ولنات الى ذكر شيء مما حلَّ بالطائفة العبرانية في اسبانيا من البلايا التي انما كان مصدرها التفتيش الخبيث فنقول . ان اليهود وقتئذٍ في تلك المملكة حازوا ثروة جسيمة وسطوة كلية وتمتعوا بامتيازات لم تتزها امتهم في الدول الاخرى فحرَّك ذلك مطامع التفتيش وحملهم على

الوشاية عليهم الى الملك بالارتداد عن الايمان المسيحي وصلب الاولاد في يوم الجمعة المدعو بجمعة الالام ناسبين الى اطبائهم اماتة كثيرين من المسيحيين بعضهم من الاشراف بل من الملوك عن قصد منطوٍ على سوء العلاج . اما الداعي الحقيقي لهذه الوشاية والوساوس فلم يكن الا الحسد والافتراء لما امتاز به اليهود من الثروة ولما جرى بينها وبين المسيحيين من الزيجات لطمع المذكورين بالاموال واولئك بالمناصب والمراتب السامية فسولت نفس هذه الطغمة اثارة الاضطهاد الشديد على هذه الامة للتمكن من السلب والغنيمة ومن ثمَّ نشرت عنهم تلك الاراجيف والاشاعات مصرحة بعدم سلامة الديانة المسيحية من الخطر الى ان ينفى اليهود غير المعتمدين من مملكة اسبانيا فصدق العموم هذه الاكاذيب وتشبثوا بها كل التشبث . اما حصار غرناطة فكان لايزال وقتئذٍ قايماً بين الاسبانيول والعرب والمعاهدة المعقودة مع كولومبوس لاجل اكتشاف اميركا حديثةً واذا بفرديناند وايزابلا اصدرا منشورهما الصارم الآمر اليهود بالنفي من المملكة وايجاب دفع الغرامة على كل من ياوى يهودياً بعد اليوم الحادي والثلاثين من تموز بجميع اموالهِ وخلعهِ عن الوظائف مرخصاً لكل يهودي ببيع عقاراتهِ واملاكهِ بشرط ان لاينقل معهُ دراهم من الذهب او الفضة ولاشيئاً من الامتعة الممنوعة . وحينئذٍ حاق بهم الخوف والقلق مما داهمهم من البلاء فعرضوا على الملك تقديم اعانة تبلغ ثلاثين الف قطعة من الفضة اسعافاً لهُ على حربهِ مع العرب واعدين بتقديم اطاعة الرعايا الامناء الوطنيين ومصرحين باستعدادهم للاعتزال الى مساكنهم قبل ان يخيم الظلام حسب ما تقتضيهِ النظامات وتجنب كل مداخلة مع المسيحيين . فبلغ ابار بانيل خازن الملك سابقاً هذه المعروضات الى فرديناند وايزابلا فلما سمح لهُ بالمثول امام الحضرة الملكية في قصر الحمراء سجد على قدمي جلالتهما متوسلاً اليهما بالغاء القضاء المذكور فمال الملك لاجابة هذا الطلب طمعاً بالدراهم مع انهُ لم يحب هذا الالتماس

فتردَّد في الامر واذا بتوركويمادا اسرع داخلاً الى القصر وهاتفاً ان يهوذا باع معلمهُ بثلاثين من الفضة واما جلالتكم فعازمون ان تبيعوهُ بثلاثين الفاً ثم اخرج صليباً وطرحهُ على المائدة قائلاً شاهدوهُ خذوهُ وبيعوهُ سريعاً كما تشاءون ثم هرع خارجاً من حضرتها فاعترى الملك وزوجتهُ حينئذٍ الخجل والارتباك ورجعا القهقرى ومن ثمَّ فاز توركويمادا بالنصرة الكاملة ثم امضيا المنشور المذكور واثبتاهُ في ٣٠ اذار سنة ١٤٩٢

وحينئذٍ حلَّ باليهود اضطراب واكتئاب يفوق الوصف لان الوقت كان اقصر من ان يمكنهم من القيام بانجاز اشغالهم واما السوق فبحالة من شانها تقديم الارباح الكلية للفئة البابا وية وقد ارغمهم الامر لان يبيعوا املاكهم بابخس الاثمان وعلى هذا كنت تراهم يبادلون بيتاً بحمار وحقلاً بمقدار زهيد من الجوخ والكتان هذا وتوركويمادا يحثهم على اقتبال المعمودية فلم يعبأ بتحريضهِ الا القليل واما الباقون وعددهم ثمانماية الف فنزحوا من اسبانيا متشتتين ومكابدين اهوالاً تفوق اهوال السبي البابلي وقد اخفى البعض الدراهم تحت سروج خيلهم او في ثيابهم فراراً من غوائل الاوامر الملكية على ان عددًا ليس بقليل ابتلعوا الذهب في اجوافهم . ثم لما اقبل اليوم المعين كنت تشاهد الطرق والشوارع غاصةً من هولاء المنكودي الحظ رجالاً ونساء واولادًا على خيل وحمير وعربات النقل تصاحبهم اسراب عظيمة من المشاة بحالة تمزق القلوب لا يعلمون الى اين يلتجئون للتخلص من الاضطهاد والتوطن هذا وحاخاموهم ترتل النشائد الموسيقية تسلية لهم على ما المَّ بهم من دواهي هذا البلاء فلم يخفض ذلك همومهم واكدارهم . وكان قد جهز قليل من السفن في الموانى الكبيرة غيرانهُ نظرًا لقلة وسائط النقل خاب رجاء الكثيرين من الوصول اليها ثم داهمهم وهم يضربون في تلك البوادي والبطاح جماهير غفيرة من اللصوص وقطاع الطريق فانزلوا بهم ما لا يوصف من البلايا واتصلوا حتى الى نزيق اجسادهم تفتيشاً على الذهب اما بعض الذين فازوا بالوصول الى

تلك السفن فاسروا وبيعوا عبيداً وكثيرون طرحوا في البحر ثم ان الوباء ايضاً فتك بكثير من السفن الغاصة بالركاب والغرق والجوع داهما اخرين كثيرين فالذين تمكنوا من الوصول الى ايرسيللا (من المواطن المسيحية الحديثة في افريقية) تقدموا لجهة فاس اذ شنت الغارة عليهم لصوص تلك الضواحي وسلبت ثمالة اموالهم فالتزموا ان يعودوا الى ايرسيللا فكابدوا من النوازل في هذا المكان ما حملهم على قبول معمودية اغتصابية. واما غيرهم فانطلقوا الى ايطاليا ملتجئين الى مملكة نابولي جالبين معهم امراضاً وبائية انتشرت بين الاهالي واختطفت في سنة واحدة ثلاثين الفاً واخرون ساروا الى مملكة البورتوغال حيث صادفوا قليلاً من حسن المعاملة لانهم سمحوا لهم بالمرور على شرط ان يدفعوا على الراس ربالاً اسمهُ عندهم كروزيد ورخصوا لهم بالتوطن في تلك المملكة وان لا يالوا جهداً من تحصيل الصنائع. قال سينار يغا انهُ لا يستطيع احد على معاينة هولاء اليهود المنفيين دون ان ينزعج مضطرباً وقد هلك كثيرون جوعاً ولاسيما الاحداث واما الامهات فكن يحملن اولادهنَّ المتضورين على ذراعيهنَّ ولا نكاد توجد لهنَّ قوَّة على القيام بانفسهنَّ ومن ثمَّ كنَّ يسقطنَ واياهم ميتات وكثيرون امسوا فريسةً للبرد واخرون للظماء الشديد واما الذين لم يكونوا معتادين على اعباء السفر وارزائهِ فزادت امراضهم وثقلت اوجاعها. ولا حاجة للاسهاب عما رُزئوا بهِ من القساوة والخسة من روساء السفن لانهم جرَّعوا البعض كاس الحمام مرضاةً لاطماعهم وارغموا الاخرين على بيع اولادهم للقيام بمصاريف السفر وقد وصل منهم الى جنوا زُمر غفيرة فلم يسمحوا لهم بالاقامة هناك طويلاً لان شريعة تلك البلاد القديمة تحرّم قبول يهودي تزيد مسافة طريقهِ عن الثلاثة ايام غير انهم رخصوا لهم باصلاح سفنهم والتربص للراحة اياماً قليلة. وقد كانوا بحالة من شان الناظر اليها ان يخالهم اشباحاً لانهم كانوا تخفاء صفر الالوان تلوح عليهم هيئة الاموات واعينهم غارقة في محاجرها على منوال لم يتميزوا بهِ عن

سكان القبور بسوى مجرد الحركة التي كادوا يفقدونها وقد اغمي على كثيرين ثم تجرعوا كاس الحتف على رصيف المينا الممنوح لهولاء المهاجرين المنكودي الحظ لكونهِ محاطاً بالبحر من كل ناحية. ثم ان العفونة والفساد اللذين انتشرا من اموات ومدنفين هذا عددهم جلب على تلك البلاد الامراض الوبائية مع ان ذلك كان كامناً حتى انقضاء الفصل الشتاء. اما عدد اليهود المطرودين من اسبانيا في خلافة فرديناند وايزابلا فيبلغ بحسب التعديل المتخفض مئة وستين الفاً وقد قال لورانت واخرون كثيرون غيرهُ انهُ انما يبلغ ثمان مئة الف الاَّ ان التعديل الاول يطابق تعديل حاخامي اليهود انفسهم اكثر من غيرهِ وقد تجرَّع الاف منهم كاس المنون في سنة واحدة وقال نحو مليون بصورة الديانة المسيحية

فهذه الاعمال البربرية توعب من عندهُ ادنى ذرَّة من الشفقة اشمئزازاً وحزناً مما استهجن ذنب اليهود الاذلاَّ وعنادهم بالنظر لرفضهم المسيح الحقيقي فمن الامور الغريبة والحالة هذه ان نرى الكتاب الاسبانيوليين يثنون عليها مفتخرين بانها من البسالة الدينية لان ميراندورا الفلورنتيني يصفها بانها مشهد ياتي بالابتهاج لمجد العدل الالهي وان كدَّر المسيحيين قليلاً وسيناريغا يقول انها صنيع من شانهِ احترام شرف الديانة وان انطوى على قليل من القساوة. اما اعمال توركوبادا المفتش العام فكادت تبلغ النهاية بعد هذه الحوادث وقد كان الموما اليهِ محاولاً الاستبداد بالسلطة منفذاً اوامرهُ بغاية الصرامة والترفض ديدنهُ التفاخر برونق موكبهِ وابهتهِ الذي كاد يحاكي الاحتفالات الرسمية تكبراً وشمماً او خوفاً واختشاء او من الامرين بصاحبهُ في اسفارهِ خمسون فارساً من الاعوان ومئتان من المشاة متصدراً في المجالس والمحافل وحائزاً مصادقة الجميع على اقوالهِ وارائهِ مع انها ربما تكون فيما بعد موضوعاً للمناقضة والجدال يجتولهُ عظماء القصر الملكي ويقدمون لهُ كل الوقار. ويا للعجب ان الملكة ايزابلا المشهورة بالفضائل والمواهب العقلية من حيثيات كثيرة تذعن

لمشورة ناسك مترفض جعلها آلة لاجراء مقاصده الدموية الخبيثة فبالحقيقة ان هذا الامر جدير بالتفات المورخين

ولم تكد تخمد نار الاضطهاد على اليهود حتى شبت على امة اخرى تباين تلك وهي الامة الاسلامية لان افتتاح غرناطة سنة ١٤٩٢ حرك المفتشين على النهوض ضد هذه الطائفة وتجريعها غصص البلاء فلم يلبثوا حتى جردوا مرهفات الدسائس والحيل مبلغين فرديناند وايزابلا بواسطة دون دييغو خليفة توركومادا وجوب نفي كل من لم يقل بالديانة المسيحية من الامة العربية ويقتبل سر المعمودية علامةً على ذلك . اما هذان الملكان فكانا يرجوان امكانية قبول هذه الطائفة الديانة البابوية فاصدرا اوامرهما بمعاملتهم بالرفق والتساهل مانعين عنها كل اضطهاد ثم عقد كسيمنس المشار اليه انفاً اجتماعاً مع علماء العرب واعدّ اياهم بكرامات ووظائف ان قالوا بالديانة المسيحية وعلموا امتهم بموجب مبادئها فكان من شان هذه المواعيد اغواء البعض على الطاعة وحينئذٍ اقتبل ثلاثة الاف منهم المعمودية ثم تحوّل احد جوامعهم الى كنيسة تدريسية . ومع ان عدد المنضمين الى النصرانية كان جزيلاً لم يبرد غيرة كسيمنس المتقدة وترفضهُ الشديد لانهُ رام تعميم التنصر بسرعة تفوق ما تقدم ذكرهُ فشرع باستعمال الارهاب والتهديد علاوةً على الدواعي الاخرى ولم يكتفِ بذلك بل جمع كتب الخط العربية واحرقها فافقد الاداب والمعارف خزانةً ثمينة لاتعوّض ثم ساق العرب بصرامة اجراآتهِ الى ثورة جنونية ونزاع شديد دخل بهِ اعوان هذا الكردينال واتباعهُ وآل الى عصيان حوصر بهِ قصرهُ واوشك ان ينال الاستشهاد الذي كان يتوق اليهِ لولا مداخلة رئيس اساقفة غرناطة وتسكينهُ بالحلم والوداعة غيظ رعاع الشعب فانقذ الموما اليهِ من الهلاك . وحينئذٍ اسرع الى البلاط الملكي مهيجاً افكار الملك والملكة على العرب واشياً عليهم بكونهم كفاراً من امة اشتهرت طويلاً بمقاومتها لكنيسة رومية ولم يالُ جهداً من تنميق العبارات

والدسائس واستعمال سطوتهِ الفعالة حتى استمالها الى موافقة مرغوبهِ لان المشار اليهِ كان على غاية من التقرب والسيادة في البلاط الاسبانيولي ولا سيما عند ايزابلا المتعصبة فعلى هذا القوا كثيرين منهم في السجن واقتبل البعض الديانة المسيحية واما البعض فبادروا لبيع املاكهم وعقاراتهم بابخس الاثمان ثم فازوا بالنجاة مهاجرين الى افريقية . ثم اثار العرب فتنة اخرى، في اقاليم البوكسارا الجبلية وثورات اخرى شبت في الوقت نفسهِ من اسباب تحاكي تلك فاخمدتها القوة السياسية بحد السيف ثم صدر امر بطرد من لم يقل بالديانة المسيحية ويقتبل المعمودية من هذه الامة على المنوال الذي حدث عند نفي اليهود فمحا الترفض البابوي الاثار الباقية من حرية العرب ودرس رسومها

اما الملك فمع انهُ صادق على شروط افتتاح غرناطة المتكفلة بعدم سواغية صيرورة المسلم مسيحيًا ضدّ الارادة نقضها بدون مراعاة الحقوق الانسانية ثم منع استعمال اللغة العربية والزواج بمقتضى العوائد الخاصة بهذه الامة ولم يكن ذلك الامن الحاح التفتيش ودسائسهِ. ثم اقام ديوان الاعتقاد المذكور جواسيس تراقب تصرفات العرب المتنصرين السرية وترفع اليهِ اعمالهم وحركاتهم باسرها قال لورانت انهُ في اليوم الثامن من شهر كانون الاول سنة ١٥٢٨ بعثت امراة ماكرة تسمى كاتالينا بشكوى على شخص من العرب يدعى جوان مناهزًا السنة الحادية والسبعين من حياتهِ مقرّرة بانها قد سكنت معهُ قبلاً ثماني عشرة سنة ولم تشاهدهُ ياكل هو وعائلتهُ من لحم الخنزير او يشربوا خمرًا وانهم كانوا يغسلون اقدامهم في كل ليلة سبت وصباح الاحد حسب العوائد الاسلامية . فاتوا بجوان المذكور الى حضرة التفتيش ثم اجروا استنطاقهُ فقرّر بانهُ لم يعتمد الاّ اذ كان في السنة الخامسة والاربعين من حياتهِ وان ما اعتاد عليهِ من عدم استعمال لحم الخنزير والخمر في المدة السابقة جعل هذا الطعام والشراب غير مالوف عندهُ وانهُ لكونهِ نحاسًا اضطر الى تكرار الاغتسال مراعاةً للنظافة فاعادوهُ

الى مدينتهِ ومنعوهُ عن السفر مسافة تزيد عن الثلاثة فراسخ. ثم استدعاهُ التفتيش بعد سنتين ليستعلم منهُ عن تقارير من شانها ايقاع الاخرين تحت الشبهة ثم اتوا بهِ الى مخدع العذاب المار ذكرهُ حيث اوثقوهُ بالسلم اما هو فقال حينئذٍ لفاحصيهِ انهم وان شددوا عليهِ العذاب فلا يستطيع ان يقرر خلاف الواقع وانهُ قد صمم على عدم التفوه باقرار كاذب فعجز المفتشون عن الوصول الى غايتهم الشريرة بالتهديد والعذاب ولم يستطيعوا ان يثنوا عزمهُ عن صدق المقال فرفعوا عنهُ العذاب ولكنهم ابقوهُ مسجوناً الى احتفال الاوتودافيه التابع اذ مشوهُ مشي المبتدع النائب ضابطاً بيدهِ شمعة مشتعلة حيث عاين كثيراً من الشهداء نزج في الاتون الناري اما هو فاطلقوهُ من الاسر

ان وجود ديوان الاعتقاد في اسبانيا يلطخ ذكر كسيمنس دوسينيروس بالعار الموبد لعضدهِ اياهُ بما حازهُ من السطوة والشهرة كيف لا وقد ارتقى الى قمة السلطة في زمان تمكنت فيهِ الباباوية من السيادة المطلقة على الانفس والاجساد وعمت الجهالة والغباوة على تلك البلاد التعيسة مستعملاً حذقهُ الطبيعي لايجاد وسائط يبرد بها ما انقد في صدرهِ من الترفض ولم يكن يغرب عن ذكائهِ تعديل الشرور الناتجة عن التعصب الديني لاجرم انهُ حافظ على نظام هذه الطغمة في وسط اشر درجة من اسوائها ناشراً اياها الى افريقية واميركا مبطلاً كل المساعي الآئلة لاصلاح رذائل هذا الديوان ولاسيما نظام الشهادات السرية وحسبنا برهاناً على قساوة اعمالهِ ما رواهُ المورخون من انهُ في اثناء الاحدى عشرة سنة التي تولى بها زمام وظيفة المفتش العام قضى باغوائهِ واذنهِ على اثنين وخمسين الفاً وثمان مئة وخمسة وخمسين شخصاً احترق منهم بالحياة ثلاثة الاف وخمس مئة واربع وستين نسمة . ومن الادلة القاطعة على سطوة هذا النظام الخبيث افتخار الامة الاسبانيولية بهِ واعتبارها اسمهُ مجداً وشرفاً تمتاز بهِ بلادهم المولود بها عما سواها مع انها اولاً اقامت الحجة القوية على ادخالهِ حاسبةً اياهُ ينبوع

تعاسة لا يفرغ ورزءا مكروها اصيبت بهِ امة باسلة لان ادعاء اشبيلية لا يزال منقوشاً على حجر منصوب في مدينتهم تذكاراً لهذا الديوان . وقد تنازعت سيكوفيا مع اشبيلية على هذا الشرف كل منها يدعي باول تاسيسهِ عندها اما مورخو الاسبانيول فمنقسمون انقساماً كلياً بالنظر لهذه المسئلة بعضهم يدعي باقامة جلسات هذا الديوان الاولى في منزل الماركيز دوموغا والبعض في منزل الماجور دوكاسيريس

ان قساوة الفحص لا توازن سوى بسرعة تصديق اعوانهِ لما يلقى على مسامعهم لان امراة خداعة من مدينة بيدريتا ادَّعت في اثناء رياسة كسيمنس الموما اليهِ بانهُ اوحي اليها رؤى من يسوع فحازت نعمة خصوصية عند التفتيش وغمرها بالانعام والتعطفات الفائقة وتقرَّبت من البلاط الملكي لان من داب رومية النظر الى المستحيلات والاراجيف ان وافقت غاياتها النفسانية بعين المراعاة والالتفات

ان كارلوس الخامس حفيد فرديناند وايزابلا اظهر في اول الامر عند ما تبوأ سرير المملكة ميلاً الى مضادة اجراآت الفحص في بلادهِ او على الاقل رغبةً بتضييق دائرة اعمالهِ الا انهُ من سوء الحظ لم يستمر على هذا العزم الصالح ان صحَّ القول بانهُ كان مخلصاً في مقاصدهِ . لان البابا ليو العاشر بعد مخابرات انضمت بها نفسانيتهُ واطماعهُ اقنع الملك على الاقلاع عن المداخلة في السلطة البابوية الاَّ انهُ رغماً عن هذه المنازعات استمرَّت سلطة هذا الديوان آخذة في الاشتداد والفتك . وقد كان من اسرى هذا الديوان الاسبانيولي وقتئذٍ طبيب يسمى جوان دوسالاس وُشي عليهِ بانهُ نطق بكلام كفري في اثناء حدة الجدال والمناقشة اما هذه الشبهة فثقيلة ان صحت مع انهُ لا ينبغي حمل المذنب على الاقلاع عن تجديفهِ بالوسائط التعذيبية اما الموما اليهِ فانكر ما نسب اليهِ من الذنوب بتةً فوضعوهُ على النورج واوثقوهُ بالحبال وثاقاً متيناً لافين اياها على اطرافهِ احدى عشرة مرة ثم حرَّضوهُ وهو في هذه الحالة على الاقرار فلم يتفوه الا

بانكار التهمة ثم طفق يتلو بصوت مرتفع دستور الايمان فكان ينبغي والحالة هذه اقتناع القضاة بصدق التصاقهِ بالكنيسة الرومانية وعدم تزعزع اعتقادهِ بتعاليمها . ثم اجروا عليهِ عذاب القماش والماء المنقط فلم يعبا بذلك بل ظل راسخاً على اعترافهِ السابق فشدد المفتشون الحبال حتى انتثر اللحم عن العظام ثم جددوا عذاب الماء فاستمر الاسير على اقرارهِ فبهت المفتش حينئذٍ من ثباتهِ الناشي لاريب عن الشعور بالحق والقيام بمطلوبات الضمير ثم قال انهُ يجب اعتبار العذابات كانها ابتدات من جديد ثم اطلقوهُ ليستمرَّ موضوعاً لانزعاج دائم مختشياً الوقوع بين ايدي معذبيهِ ثانيةً . وفي سنة ١٥٢٥ كفَّ كارلوس بعد مشاجرات وتهيجات شتى عن حماية الديوان المذكور انما كان هذا اسماً لا فعلاً

واذا بشمس الاصلاح اخذت في البزوغ وانتشرت بركات حريتهِ الدينية على كثير من البلاد الاوروبية حتى امتدَّ ذلك الى اسبانيا فعاقت اخطارهُ بالنظر للكنيسة الرومانية على اخطار اليهود الخ لان مساوي الكنيسة في تلك المملكة حركة انتباه البعض ثم اخذت كلمة الله مع بعض كتابات المصلحين بالانتشار . قال كونزالو دو اليكسوس من الكتاب الاسبانيوليين المقتبس عنهُ دوكاسترو موكداً ان بسمية بدعةً قد انتشر انتشاراً كلياً بهذا المقدار حتى ان لم تكن حصلت المبادرة لاستعمال العلاج حسماً لهُ في اول الامر وتاخر ذلك شهرين او ثلاثة فيكون من شان هذه الشرارة الامتداد والاتيان بالنوائب والدواهي العظيمة . اما التفتيش فقام بواجبات وظيفتهِ حينئذٍ قياماً لامزيد عليهِ وابدى من المساعي الفعالة ما كاد يستاصل كلمة الله من تلك البلاد فالتزم كثيرون من اللوثيريين بالالتجاء الى البلاد الاقل ترفضاً واما الذين وقعوا في قبضتهِ فسكب عليهم جميع جامات غضبهِ مجتهداً بكل قوتهِ على ابادة الحق الالهي من تلك البلاد بواسطة النطع والوتد وقد اسعفهُ على هذه الشرور الملك فيلبس الثاني الذي كان وقتئذٍ متبوءاً السدَّة الملكية . لان

الامبراطور كارلوس الخامس كان منهوكاً من اهتمام المملكة ومنفرداً في محل عزلتهِ الجميل في يوست الاَّ ان روحهُ المتعصبة كانت بغاية الاضطراب من اخبار الخطر الذي كان يتهدَّد الكنيسة فكتب الى ابنهِ المقيم وقتئذٍ في فلاندرس يحثهُ على اتخاذ الاجراآت الصارمة مضيفاً على مكتوب كاتم اسرارهِ رسالةً بخط يدهِ يعبر بها عما المَّ بهِ من الكآبة الناشئة عن انتشار البدعة وعن وجوب استئصالها بالوسائل الفعالة . فاجاب مدبراً طرقاً جديدة متنوعة ينبغي التعويل عليها بحسب زعمهِ حسماً للشرور الآخذة في النمو وحينئذٍ صار توسيع دائرة اعمال التفتيش وتقييد حرية المطبعة تقييداً كلياً واخضاع سائر المصنفات والتآليف لانتقاد الفحص. ومن البراهين الدالة على شدة الاجراآت المستعملة وقتئذٍ هو ان الدكتور ماتثيوز و طبيب الامبراطور كارلوس الخامس الامين التزم ان يلتمس من وزير المملكة الاول استحصال الرخصة من التفتيش ليتمكن من ابقاء توراة فرنساوية بدون حواشٍ كانت وقتئذٍ في حوزة المومأ اليهِ فحالت معارضات هذا الديوان دون حصولهِ على المرغوب فاستصوب احراق الكتاب الممنوع في حضرة معلم اعتراف الامبراطور ثم اتمَّ ذلك فعلاً .

لقد اصاب احد بلغاء الكتاب بما قررهُ عن مساعي الكنيسة الرومانية نظراً لاستعبادها وتقييدها العقل الانساني حيث قال مناوهاً ان في الاجيال الاولى استحقت الكنيسة ممنونية العالم لانها كانت خزانة مقدسة للمعارف والاداب غيرانها في الاجيال الثلاثة الاخيرة انعكفت باجتهاد على محو هذه المنة بخنقها القرائح السامية عند ميلادها وجعلها اياها ضحية لاطماع روسائها محاربةً ابطال الذكاء والنجابة بسهام السلطة المطلقة والادعاء الكاذب واخرةً غصونها المزهرة بسمومها القتالة

ولم تكن همة التفتيش لتخمد في مثل هذا الاوان بل برزت فوراً للعيان واضرمت نار الاضطهاد على كل من استنار لبهُ بمصباح الحق الانجيلي وفي سنة ١٥٤٠ اخذ دورودوريغو دوفاليروان يعظ ويعلم

بالبروتستانية في اشبيلية وقد كان الموما اليهِ شابًّا غنيًّا دمث الاخلاق لطيف السجايا متعلمًا من روح الله (رغمًا عما اتصف بهِ من بعض النقائص) ومعتبرًا قيمة الاسفار المقدسة واهمية الحرية الدينية فادَّاهُ الاقتناع باضاليل الكنيسة الرومانية الى جدال متواصل مع جيرانهِ الاكليريكيين والمحاماة عنها في كل نادٍ ومحفل مكتنهُ الفرصة من الحصول عليهِ غير مبالٍ بما من شانهِ ان يجشمهُ من الاخطار . فاستدعاهُ التفتيش الى حضرتهِ اما هو فلم يعبا بالتهديد والعذاب بل اظهر من البسالة والحماسة ما ادهش الفاحصين مقدمًا الادلة القاطعة على الحقائق الانجيلية والعلامات المميزة الكنيسة الحقيقية رافعًا لواء تعليم التبرير بالايمان بواسطة المسيح فحسبهُ المفتشون مصابًا بالاختلال العقلي فاطلقوهُ مكتفين بضبط اموالهِ جميعها . الا انهُ مع ذلك لم يفترعن اذاعة الحق الصريح والمناداة بتعليم الخلاص فاستحضروهُ بعد بضع سنين للمثول امام ديوان الاعتقاد نفسهِ حيث افحم مجادليهِ بالبراهين السديدة واوشك ان يصيروقودًا للاتون الناري لولا زعمهم بجنونهِ الاَّ انهم ارغموهُ على جحود اقرارهِ في وسط كنيسة اشبيلية ثم قضوا عليهِ بلبس السامبينيتو وبالسجن الدائم ومع ذلك لم ينفك عن معارضة الواعظ جهارًا ومناقضتهِ ما كان يعظ بهِ من التعاليم المغايرة اذ كانوا يجبرونهُ على الانطلاق اليها في كل اسبوع الاَّ ان جنونهُ الموهوم انقذهُ من بطش معذبيهِ وافتراسهم . ثم ادركتهُ المنية في ديرسانت لوكار اما السامبينيتو المختص بهِ فحفظوهُ في كنيسة اشبيلية الكبرى مصحوبًا بعنوان يصرح بكونهِ تلميذًا كاذبًا ولوثيريًّا . ان هذه الحادثة تقف في طليعة جيوش الاضطهاد المفوق نباله نحو الايمان المصلح ولا بد ان نقرر في سياق هذا التاريخ اخبارًا جمة من هذا القبيل لكنهُ يحسن بنا افتتاح ذلك بهذه الملاحظة وهي اننا عبثًا نترصد بين اخبار الاستشهاد الاسبانيولي العثور على الادلة الصريحة الشاهدة للغلبة المسيحية على الالم والعذاب الامر الذي يهيج القاري عند انعكافهِ على مطالعة قصص تلك الالام المرة الحالة

بضحايا الاضطهاد الباباوي في انكليترا وفرنسا وبلدان اخرى . لانهُ لم يعاين حتف شهداء الحق هناك الاَّ اناسٌ رومانيون كاثوليكيون يتلهبون غيظاً ويودون ثلم صيت اولئك المنكودي الحظ وهتك اسمهم ولم يكن من يروي عنهم شيئاً من التقارير الصادقة كيف لا وقد ساقوا كثيرين منهم الى الوتد مكمّين حذرًا من ان يتفوهوا بما من شانهِ ان يهيج شكوك المتفرجين وشفقتهم . الاَّ انهُ رغماً عن هذه الظروف لا تخلو من بعض الابتهاج والطمانينة واثقين بان ذاك الذي مشى مع الثلاثة فتيان في الاتون الناري قد رافق ايضاً هولاء الشهداء الامناء وعضدهم في وسط مجاهداتهم بسند غير منظور ولا ريب بانهُ وجد كثيرون بينهم ممن هو جديرٌ بالانضام مع جيش الشهداء الجليل ولبس اكليل الغلبة والمجد

اننا قد اشرنا الى ما منحهُ كارلوس الخامس الى الفحص من الاسعاف الناشي عن التعصب اذ كان في محل عزلتهِ في يوست وقد صمم النية على موالاة ما قام بهِ من النجدة الى التفتيش حتى بعد وفاتهِ لانهُ سلم الطغمة المشار اليها بوصيتهِ الاخيرة الى عناية والتفات ابنهِ فيلبس الثاني على الكيفية الاتي بيانها وهذا نص الوصية

انهُ مراعاةً لواجباتي نحو الاله القدير ومن جراء محبتي الشديدة للامير الجليل الشان ابني العزيز جدًا فيلبس الثاني ولرغبتي الكلية الحارَّة بحصولهِ على الامان تحت حماية الفضيلة اكثر مما هي لحصولهِ على الثروة والعظمة اوصيهِ حبًا بنفسهِ ان يعتني اعتناءً خاصًا بجميع الاشياء المختصة بمجد الله كما يليق بملك كاثوليكي امين وامير غيور على الوصايا الالهية وان يكون على الدوام طائعاً لاوامر امنا الكنيسة المقدسة ومن الامور التي اوصيهِ بها توقير واسعاف طغمة التفتيش المقدس وخادميهِ ومتوظفيهِ توقيرًا واسعافاً كليًا كما هو مرتب من الله ضدَّ افساد العقول والاداب لانهُ بهذا العلاج تشفى الاسواء الباهظة المرتكبة ضد الله وامرهُ ايضاً ان يهتم بالمحافظة على امتيازات كل الكنائس والاكليريكيين ومعافاتهم . ثم ذيل وصيتهُ قائلاً

انني ارغب بكل حرارة واتضرع اليهِ بكل شوق واوصيه بالدالة الوالدية واعتبار ابيه الشديد المحبة بالنظر لهذه القضية المختصة بصالح اسبانيا ان يهتم اهتماماً مبنياً على الغيرة الكلية بمقاصة سائر المذنبين بجناية البدعة قصاصاً صارماً يعادل ذنوبهم وان يفيض لهذه الغاية على طغمة الفحص المقدسة اعظم الكرامات لانهُ بواسطتها يزيد الايمان الكاثوليكي في مملكتهِ وتستمر الديانة المسيحية محفوظة من الاختلال والتعدي . فهذه الاقوال المنطوية على الترفض المسيحي الكاذب والغيرة العمياء اثرت في خليفتهِ فيلبس تاثيراً فعلياً وحركت بهِ دواعي الاضطهاد الدموي قياماً باوامر والدهِ ومرضاةً لتعصبهِ القبيح فغصت سجون اسبانيا وقتئذٍ من المحرقات اللوثيرية . وفي اليوم الحادي والعشرين من ايار حدث في ساحة فالادوليد احتفال اعتقاد ملكي امتاز بحضور الاميردون كارلوس والاميرة جوانا وعدد غفير من اعيان اسبانيا وجمهور جزيل من المتفرجين قضي بهِ على اربعة عشر شهيداً بتجرع كاس المنون حرقاً على الوتد ثم احرقوا بقايا امراة وصورتها وصالحوا (بحسب اصطلاحهم) ستة عشر شخصاً بعد ان حكموا عليهم بتاديبات وحدود صارمة وقد كان من الموما اليهم الانفار الاتي بيانهم

اولاً دونا الينورا دو فيبيرو زوجة كازالاً احد متوظفي الخزينة كانت مالكةً في اثناء حياتها كنيسة كبرى في دير يختص بالبيديكتيين وُشي عليها بعد وفاتها باللوثيرية وانها اخفت اراءها بغاية الحرص والكتمان فاستدعوا الشهود ثم وضعوهم تحت العذاب والتهديد وارغموهم على الاقرار بان منزلها كان مستعملاً من اللوثيريين نظير نادٍ للاجتماع واذ ذاك قضوا على اسمها وذريتها بالعار والفضيحة ثم ضبطوا اموالها واخرجوا جسدها من ضريحهِ والقوهُ في اللهيب اما مسكنها فهدموهُ وصيروهُ من الرسوم الخالية ثم نصبوا في دمنتهِ تذكاراً حجرياً سنشير اليهِ فيما بعد ونقشوا عليهِ خبر جنايتها وقصاصها . ومن المحرقات الحية في الاحتفال المذكور

الدكنور اوغسطين دوكازلاً من اصل يهودي ممتاز في كنيسة سالامانكا الكبرى بوظيفة واعظ وجامع الاحسان الملكي وشي عليهِ باللوثيريه فانكر ذلك اولاً ثم اقرَّ بصحتهِ تحت العذابات المريعة مصرحاً بانهُ لم يذع هذا التعليم لكنهُ تعهد بصيرورتهِ كاثوليكيًّا حقيقيًّا ان صدر العفو عن حياتهِ (هذا ما تبديه الطبيعة الانسانية من العجز والقصور حينما تترك لضعفها الطبيعي) فانفذوا اليهِ في اليوم المتقدم على حتفهِ راهباً من طغمة القديس جيروم ليلحّ بزيادة الاعتراف اما هو فاكد عدم استطاعتهِ على الاقرار بسوى ماتفوه بهِ الآن قرر خلاف الواقع فحرضوهُ على التاهب للموت في اليوم التابع. ومن ثمَّ اعتراهُ اضطراب ليس بقليل لما فاجاهُ من القضاء المهول فقال لهُ المفتشون ان لا رجاء لهُ بالحياة ان لم يقدم اقراراً زايداً عما ابداهُ وحينئذٍ اجاب المنكود الحظ انهُ ينبغي ان انهيا لتجرع كاس الحمام بنعمة الله حيث من المستحيل ان اضيف على ماقد قررتهُ ان لم اتكلم بالكذب ثم لما انتهى الى ساحة العذاب التمس رخصةً للتكلم مع ارفاقهِ الاسرى فلم يسمحوا لهُ بذلك الاَّ انهُ تمكن من الحصول على فرصة لان يحث اصحابهُ حثاً ناشئاً عن الجبن وضعف العزيمة لان يتنصلوا من عقائدهم ويموتوا في حضن الايمان الكاثوليكي. قال احد الشهود المعاينين المشهد الاخير من حياتهِ انهُ بعد وصولهِ الى النطع ومشاهدتهِ نفسهُ مذلولاً بالقلنسوة المعهودة على هامتهِ والحبل حول عنقه لم يتمالك من ذرف العبرات ثم اضاف المذكور قائلاً ان من الادلة على توبتهِ ما صرَّح بهِ علناً من ان الطمع وخبث الطوية كانا علة خيانتهِ وان كان عازماً على تهييج العالم وازعاج راحة تلك البلاد بواسطة ابتداعاتهِ وانهُ لم يكن لهُ داعٍ اخر سوى املهِ بالتبجيل والوقار من الامة الاسبانيولية كما كان لوثيروس في صكصونيا وان البعض من تلاميذهِ يدعون كازاليين نسبةً اليهِ. لا يخفى عن فطنة القاري دسائس اليد المدونة ما قيل لان هذه العبارات المنسوبة الى الموما اليه ليست ببعيدة التصديق عن انها تكون منسلةً عليهِ من

احد البابويين ذوي الاغراض الذين معرفتهم باللوثيرية انما تقوم بكونها هي الطريق للحصول على الامتياز والشهرة . ثم انهُ نظرَ الندامة كازالاَّ الذي كان افصح الوعاظ الاسبانيوليين اماتوهُ خنقاً قبل احراقهِ

ومن شهداء هذه الحادثة فرانسيسكو دوفيبيرو كازالاَّ اخو المتقدم ذكرهُ وُشي عليهِ نظيرهُ بالتعاليم المصلحة قال البعض انهُ اعلن اولاً خلوص تشبثهِ باللوثيرية لكنهُ ارتد عنها تحت العذاب مقرًّا بالندامة وقال كاتب اخرانهُ ثبت متمسكاً باعترافهِ بالمسيح وانهُ لما حرضهُ اخوهُ على الجحود ابدى كدرًا وغيظاً كليًّا ثم اماتوا المومأ اليه ايضاً خنقاً مع اختهِ دونا بيانريس كازالاَّ وجعلوا اجسامهما وقودًا للنيران . ومنهم الفونزو بيرز مدرس اللاهوت اقر تحت العذاب ثم تجرَّد ايضاً من وظيفتهِ البيعية واميت خنقاً ثم زُجَّ في اللهيب . ومنهم انطونيوس هيرنزو يللا احد علماء الشريعة من تورو وُشي عليهِ باللوثيرية ولم يكن يعبأ بتحريض كازالاَّ فاغاظ ذلك احد متقلدي السلاح الحاضرين فاشرع الحربة وطعن بها جسمهُ اذ كان معلقاً على الوتد قيل انهُ انشد مزامير وترنيمات في وسط اللهيب . هذا وان زوجتهُ ايضاً شاركتهُ باكليل الشهادة ولكنها ارتاعت اولاً من العذاب جاحدةً ايمانها فكدر ذلك زوجها وخاطبها خطاباً اثر بافكارها وحملها على ان تقر بالتعاليم البروتستانتية وتكابد لاجلها عذاب الحريق . ومنهم جوان كاريسا من الصياغ وبريز دوهيريرا من القضاة وايزابلا دوسترادا وجين بلاسكويز وُشي عليهم ايضاً باللوثيرية مع انهم كانوا ابرياء مما نسب اليهم من هذا الاعتقاد الا ان شدة العذاب حملتهم على الاقرار وقد شارك المومأ اليهم بتجرع كاس المنون كونزاليس يايزوشي عليهِ بكونهِ مبتدعاً يهودياً

وقد كان مع هولاء اخرون كثيرون ممن جحدوا بدعهم وصولحوا مع الكنيسة منهم دون بيدرو سارمينيتو دوروكساس وزوجتهُ ودونا مانسيسا ودونا انا هيزبكيزدو روكساس ودونا ماريا دوروكساس من الراهبات دون جوان دواولولا بيريرا من روساء فرسان رتبة القديس يوحنا وجوان

دوفيبيرو كازالا من اقارب كازالا الذي اشرنا اليه الان والينورا دو سينيروس البالغة من العمر اربعاً وعشرين سنة وماريا دوسا ڤاريرا من ارامل العيال الشريفة وانطوني واسور من الانكليز ودانيال دوكواشا ان هولاء الموما اليهم جميعاً ظهروا في الثوب المعهود واعيدوا الى سجونهم ليكونوا هدفاً لسهام القضاء القانوني العتيد ان يحكم بهِ عليهم في الصباح القادم . اما القضاء المذكور فيقوم بثلم الصيت وضبط الاموال والسجن الابدي . وقد كان ممن اقسم القسم الاعتيادي بالحاماة عن ديوان الاعتقاد والقضاء على البدع في هذا الاحتفال الاميرة جوانا وكارلوس ولي عهد اوستريا الذي كان وقتئذٍ يافعاً يبلغ من العمر اربع عشرة سنة الا انهُ تاثر جداً من هذا المشهد المريع وتحركت احشاؤهُ من الشفقة على اولئك المنكودي الحظ

ثم انهُ في ٢٤ ايلول من السنة نفسها حدث احتفال اعتقاد اخر في ساحة القديس فرنسيس في اشبيلية صار اشهارهُ امام المجلس العالي الملكي ومحفل اكليروس الكنيسة الكبرى ودوكة بيجار ومفتشي المقاطعة وكثير من الاعيان والاشراف وجمهور غفير من المتفرجين . ففي هذه المرة احرقوا واحد وعشرين شهيداً وصورة احد المبتدعين وقضوا على ثمانين بتاديبات مختلفة وقد كان من جملة الموما اليهم الاشخاص الاتي بيانهم

فرنسيس زافرا كان قسيساً في كنيسة اشبيلية متمتعاً بدخل جسيم ومستخدماً في طغمة التفتيش فايزاً بنجاح ليس بقليل نظراً لتسهيلهِ فرار كثيرين ممن وشي عليهم . فبلغ الشكوى عليهِ امراة تسمى بيانا كان قد قبلها في منزلهِ وعلمها عقائد الاصلاح ولكنها اذ اصيبت بالعته وضعها تحت المحجز فحركتها المعاملة المذكورة للفرار وتقديم الشكوى على القسيس المشار اليه الى تلك الطغمة مقرّرة بوجود ثلاث مئة شخص متلطخين بتلك البدعة نفسها فضلاً عن الموما اليه فكانت نتيجة هذا التبليغ القاء القبض على اكثر من ثمان مئة شخص وزافرا نفسهُ من جملتهم غير انهُ نظراً لتقريرهِ

ان شهادة انسان مخجل لا تسوغ ان تكون برهانًا شرعيا توقفت الاجراآت عن المومما اليهم اما زافرا فدبر طريقةً للفرار والنجاة فانتقموا من صورتهِ زاجين اياها في اللهيب. ومنهم الاخ كارسيا دو ارياس المدعو بالدكتور الابيض نسبةً لشعرهِ الثلجي وشي عليهِ باللوثيرية الا ان التفتيش لم يشتبه بهِ مطلقًا لانهُ ابدى من الغيرة بتاييد نظام ديوان الاعتقاد ما حرّك المفتشون لان يشيروا عليهِ باستعمال الرصانة والتعقل واثقين بهِ كالسابق اما الحادثة الاتي بيانها فمن شانها ان تشخص الزلات المكدرة المعرّض لها اولئك المعتقدون بافضل العقائد والنظامات وتدل ايضًا على الخطر المعتري من يبيت فريسةً لتاثير الرعب والمخاوف الناشئة من ضواري التفتيش الناشبة مخالبها بكل عقل منتبه قاصدة ان تمزق حريتهُ ان لم تعالج ببلسم النعمة الالهية على اننا لا نخلو من الارتياب بصحة اعتقاد الشخص المشار اليهِ بهذه الرواية اما هذه الحادثة فهي. ان انسانًا يدعى ريوز وُشي عليهِ بانهُ بشر بتعاليم غير صحيحة فاستدعوهُ للمثول امام ديوان الاعتقاد وحينئذٍ انطلق الى ارياس المشار اليهِ الذي كان من جملة اصدقائهِ ليبث لهُ ما المَّ بهِ من الارتباك والاضطراب وليطلب منهُ ان يمدهُ بالنصائح الحسنة عما عساهُ ان يستعملهُ من الوسائل للمحاماة عن نفسهِ والتخلص من تلك الورطة فلما مثل امام الديوان اخذ ارياس بمقاومتهِ والاحتجاج معهُ كمن هو من اعز انصار البابوية وحينئذٍ اعترى المومما اليهِ غاية الاندهاش وعربسة الافكار لما فاجاهُ صديقهُ بهِ من المضادة عوضًا عما كان يترصدهُ من النجدة والاسعاف. وقد ازداد اضطرابهُ مما ابداهُ نحوهُ من مواربة العبارات ومعاكستها على كيفية افسدت استعدادهُ السابق فخارت عزائم ريوز من هذه الصدمة الناشئة ممن كان لا يشك بصداقتهِ قال لورانت ان اصحابهُ اللوثيريين بكتوهُ على ذلك في ما بعد وقد اسمر المومما اليهِ لوثيريًا سرًّا ناشرًا اراءهُ علنًا ضمن جدران ديرهِ فنتج من ذلك تاثيرات كلية جعلت تراتيب الدير واحتفالاتهِ في زوايا

الاهمال . واذا باخطار الويل مفاجئة تهدد ذلك المكان وسكانهُ فلم يسع بعض الرهبان الاَّ الفرار اما ارياس واتباعهُ فسقطوا في الاشراك وحينئذٍ تحولت جبانتهُ الى الاقدام والخلوص حتى انهُ لم يوكد اراءهُ ويوئيدها فقط بدون ارتباك وتردد بل برز للمحاماة عما تعلمهُ من عقائد الاصلاح داحضاً ما كانوا يلقونهُ عليهِ من الاسئلة او ينتخبونهُ من الموضوعات وقد كان ممن لهم الباع الطويل والشهرة الكلية في معرفة اللاهوت حتى انهُ لم يتجاسر احد على النزول امامهُ الى ساحة الجدال وقد كفَّر عما ابداهُ اولاً من الجبانة والرياء بما اظهرهُ من الحماسة والنشاط عند تجرعهِ كاس المنون حرقاً على الوتد . وقد شاركهُ بهذا الاستشهاد قسيس اخر من اشبيلية من نسل عربي يسمى دون جوان كونزاليس احضر سابقاً الى ديوان الاعتقاد وارغم على تجحد ديانتهِ ثم قال بعد ذلك بديانة الاصلاح فاستودع الثلاثة شهداء للحنف سويةً متناشدين في وسط اللهيب المزمور المئة والسادس ومنكرين الاصاليل الرومانية . وقد كان من جملة الشهداء الموما اليهم دونا ماريا دوهوبوركويز من السيدات اللواتي سرى في عروقهن افخر دم اشبيلية امتازت بالسمو والمحافظة على المبادي الكريمة واتصفت بالمعارف الفائقة والبراعة الكلية في الحقائق البروتستانتية كما يليق بمن تتلمذ من ايجديوس العالم المشهور على انها كانت دون السنة الحادية والعشرين من حياتها الاَّ ان اهوال التفتيش لم تستطع ان تثني عزمها عن القول بعقائد الاصلاح علناً فجردوا عليها مرهفات العذاب واما هي فلم تعبا بذلك بل كابدتها ببسالة الابطال . وقد سالوها الم تبكت اختها اراءها من جهة التعاليم المشار اليها فاجابت كلاَّ وعلى هذا صارت (ربما عن غير قصد) واسطة لايقاع واحدةً من اعز انسبائها في الاشراك ثم قضوا عليها بالاحراق على الوتد ثم قبل ان بعثوا اليها بخبر القضاء المذكور زارها في سجنها بعض مرسلي التفتيش الاَّ ان تلك الفتاة الباسلة لم تتزعزع عن ايمانها ولم تكترث حتى باعظم متقدمي تلك الطغمة فعادوا متشكين كما هو داب المقهور من

عناد اسيرتهم الذي يابى علاجاً . فارسلوا لها رسلاً اخرين فقبلتهم بكل رقة ولطافة قائلةً انهُ مهما اهتموا واجتهدوا على ترجيعها فلا يفوق ذلك ما صممت عليهِ من الثبات في الحقائق الانجيلية وانها لم تصل الى ماعولت عليهِ من النتائج الا بعد اعتناء بليغ وفحص مدقق وانها قد ازدادت رسوخاً في تلك العقائد ما اختبرتهُ من معاينة الارتباكات التي كان يعانيها اولئك المرسلون لاقناعها حين تقديم الاجوبة على اعتراضاتها فلم يكن من شان هذه الاجوبة التسليم باطلاق هذه الفتاة الثابتة الاقرار من مخالب التفتيش . فاتوا بها لاستقبال المنية حيث اخذ احد اللوثيريين المرتدين بتحريضها لان تقتفي اثارهُ واما هي فابت قبول هذه النصيحة مصرحة بانهُ لم يعد لها وقت للجدال وان افكارها انما اتجهت الى التامل بما صنعهُ المسيح لاجلها من الفداء فتحرك بعض المتفرجين شفقةً على صباها وتشفعوا عند من كان بيدهم زمام الحكم بانقاذ حياتها انما على شرط ان تتلو دستور الايمان فلما حازت الانعام المذكور اذعنت لما طلب منها وحينما اتت على اخرهِ طفقت تشرحه الى الجمهور على كيفية تطابق تعاليم الاصلاح فاستشاط المفتشون غضباً وبادروا الى تسكيتها بالخنق على الوتد ثم حرقوا جسمها اخيراً وقد اشترك معها باكليل الشهادة البعض من فتيان الاشراف

وقد ولي هذين المشهدين ثالث اقيم في يوم الاحد في ٨ ايلول سنة ١٥٥٩ في ساحة فالادوليد الكبرى تشرَّف بحضور الملك فيلبس الثاني الذي كان قد عاد وقتئذٍ بحراً الى مملكتهِ بعد وفاة زوجتهِ مريم ملكة انكلترا المعروفة بالدموية في تشرين الثاني من تلك السنة نفسها ومكابدتهِ من الانواء والعواصف ما اوشك ان ياتي بهِ الى اعماق اللجج فنذر لله تقديم ذبيحة عظيمة من المبتدعين ان اوصلهُ الباري سالماً الى وطنهِ فقياماً بحق هذا العهد صارت المباشرة باعداد المعرض الاتي بيانهُ . وقد احاط بالملك في هذا الاحتفال زمر غفيرة من العظماء والاشراف وغص موكبهُ بامراء من الدم الملكي وسفراء فرانسا ورومية مع دوكات وماركيزات وكونتيات

ورؤساء الرهبان وقواد الفرسان وسيدات من اسمى المراتب ثم قبل الشروع بهذا الاحتفال تقدم المفتش العام الى الحضرة الملكية طالباً منها تلاوة القسم الاعتيادي فكررهُ الملك بعدهُ وسيفهُ مسلولاً . وقد احرقوا في هذا المرسح الجهنمي ثلاثة عشر شخصاً مع جثة رجل مائت وصورتهِ واما عدد الغائبين الحاضرين في هذا المشهد فستة عشر شخصاً هذا وان من هذه المحرقات الانسانية ما يستحق نظراً والتفاتاً خاصاً . منها دون كارلوس دوسيسوا ابن اسقف راسينزا امتاز بالمعارف والوظيفة السامية كان من اعظم انصار الاصلاح في فالادوليد وجوارها فلما حتموهُ على الاقرار التمس الرخصة لان يودي شهادتهُ خطاً ففاز بالمطلوب ومن ثم اصدر طرساً معتبراً يويد بهِ تعاليم الاصلاح مبرهناً على انها مبنية على المبادي الانجيلية الصحيحة وانها انما تختص بكنيسة المسيح الحقيقية فسيق في هذا الاحتفال مكمماً حذراً ما من شانهِ ان يعلنهُ من التعاليم الموطدة مباديه والداحضة اقوال اخصامهِ . فلما وصل الى المحل الجالس عليهِ فيلبس الملك ورفع عنهُ الكمامة بادرهُ سائلاً كيف يسمح باحراق رجل من رتبتهِ فاجابهُ الملك لوكان ابني شريراً نظيرك لكنت بنفسي اتي بالحطب لاحراقهِ ثم لما اقتربوا بهِ الى الوتد اشاروا عليهِ بالاعتراف والتوبة اما هو فهتف قائلاً لوكنت حاصلاً على وقت كاف لكنت اقنعكم بانكم كلكم هالكون لعدم اقتدائكم بي فصرخوا ضاجين اسرعوا لايقاد الحطب وافنائهِ من الوجود . ومنها بيدرو دوكازالاَّ والدومينيكي ثانيز من القسوس اقرا باللوثيرية وخنقا قبل الاحراق . ومنها القسيس دوروجاز من طغمة الدومينيكيين من كان قد تجرَّع اخواهُ كاس الحتف بواسطة قضاء ديوان الاعتقاد فلما اتي بهِ الى حضرة التفتيش تردد في نادية الشهادة فحكم عليهِ بالوضع تحت العذاب اما هو فالحَّ بطلب المهلة قليلاً الى ان يتمكن من تقديم تقارير اخرى على انهُ كان قد التمس المصالحة مع الكنيسة فلم يجيبوهُ الى مطلوبهِ بل هياوهُ للموت على كيفية صارمة جداً لانهُ حاول اخفاء اناس ممن وشي عليهم سابقاً . ثم لما مثل

امام الملك هتف في حضرتهِ قائلاً انني اومن بآلام المسيح التي هي وحدها كافية لخلاص العالم باسرهِ وتبرير النفس بدون شيء من الاعمال الاخرى انني بهذا اومن للخلاص قال دوكاستيرو الراوي لهذ الاخبار انهُ لم يتم هذه الكلمات الا والملك يامرهُ بالانصراف من حضرتهِ ولكنهُ القى ذراعيهِ على عمود غليظ وتشبث بهِ ثم استمر مصراً ومحامياً عن ارائهِ بشدة لم يستطع معها راهبان على افلات يديه وتسكيتهِ الى ان هجم عليهِ احد القواد ووضع في فيهِ كمامة لم تنزع عنهُ حتى اسلم الروح . وقد كان مرافقاً اياهُ ما ينوف عن المئة من طغمتهِ ينصحونهُ ويعظونهُ بالارتداد قال المذكورون انهُ مع وجود الكمامة على فمهِ فهموا منهُ هذه الكلمات وهي لالا ومع كل ذلك يدعون بانهُ تاب ورجع الى كنيسة رومية ولذلك لم يميتوهُ بالاحراق بالحياة بل خنقاً . ومنها لوثيري اخر كان خادماً ليدرو كازالا الموما اليهِ وُضع على كومة المحرقة واذا بقيودهِ انحلت محترقة في اللهيب فوثب صاعداً بالام لاتوصف واذ ذاك تمكن من مشاهدة دواسيسو الذي اشرنا اليه الان معايناً ثباتهُ وجلادتهُ في وسط النيران فخجل حينئذٍ من جبانتهِ ثم رضخ لحتفهِ صابرًا انما التمس ازدياد الحطب ليتمكن من الاحتراق نظير رفيقهِ . ومنها راهبة تدعى دونا مارينا دوكويفارا من طغمة السيستربشيين كان المفتش العام يتمنى جدًا انقاذها فلم يكن والحالة هذه واسطةً لاطلاقها سوى الاقرار الكاذب واما هي فاصرَّت على رفض ذلك على ان علة ايمانها انما كانت سماعها احد الاشخاص يكرر هذه الاية وهي اذ قد تبررنا بالايمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح فصدقت التعليم المذكور وامنت بهِ فاماتوها خنقاً ثم احرقوها لكننا لانخلو من الارتياب بتصريحها الاخير عن اعتقادها بتعليم التبرير بالايمان الكلي الاهمية قيل انها لم تستطع ان تعبر عن كيفية اعتقادها بذلك . وفي نحو هذا الزمان نصب التفتيش عمودًا من الحجر الابيض في البقعة التي كان قائماً بها منزل دونا ليونورا دوفيتيربو ونقش عليهِ اخبار لوثيريةِ عائلةِ الكازالا واسما الملك والبابا الصائر انفاذ

القضاء على تلك العائلة المبتدعة تحت حكومتها وقد استمر باقيًا الى زمان الفتوح الفرنساوي (تحت نابوليون الاول) اذ اندرست اثارهُ وقتئذٍ قال دوكاسترو انهُ لا يزال باقيًا في نفس المحل الذي كان منصوبًا بهِ نخيلاً لامتنا وقد اسس اليسوعيون على دمنة ذلك البيت جزءًا من مدرستهم الكلية

ان فيلبس لم يكن فقط موجودًا في الاحتفال المشار اليه بل انطلق بنفسهِ الى النطع حيث ظهرت عليهِ لوائح التعصب الاعمى الموسومة بهِ اخلاقهُ وسمًا كليًا ثم اخذت سحب الترفض ان تتكاثف في افاق نفسهِ الى ان انفجرت مفاعيل هذا الاختلال الديني بتجهيز المستعمرة الاسبانيولية المعروفة بالارمادا (تنبيه ان القصد بالمستعمرة المذكورة انما كان افتتاح انكليترا لاجل الانتقام من ملكتها اليصابات ورعاياها لقول اكثرهم وقتئذٍ بالديانة البروتستانتية ولكن قد غرق البعض فصارت طعامًا لنيران الاعداء ولم يسلم منها الا القليل) الا انهُ وقتئذٍ امر اعوانهُ الخاصة باعانة طغمة ديوان الاعتقاد على تضحية المحرقات الانسانية وقد حاكى المفتشين انفسهم توهمًا بان ما تحكم بهِ الكنيسة من انزال تلك الدواهي والعذابات بالمبتدعين انما هو من اعظم القرابين المقبولة عند الله . انهُ بالحقيقة لمشهد مكدر ان نرى فيلبس الموما اليهِ مضبوطًا تحت رق الضمير المظلم والتمييز المستعبد زائغًا عن محجة الصواب باتباعهِ خرافات عمياء واعتقادات وخيمة لاجرم انهُ قد تقدم في ايام خلافتهِ ما كان قد تنبا بهِ مخلصنا اذ قال ان كل من يقتل تلاميذهُ يظن انهُ يقدم عبادة لله كيف لا وقد حاكى باعمالهِ البربرية واخلاقهِ المتوحشة نيرون الذي هو اشر المضطهدين من قياصرة الرومان لان ملاحظات دوكاسترو بالنظر لاوجه الشبه الكائنة بين هذا الملك الاسبانيولي ونيرون الروماني تستحق كل الالتفات فالموما اليه يقابلهما على الكيفية الاتي بيانها

انهُ حينما اخذت نيران الحريق المهول ان تفتك برومية المتشامخة

امر نيرون بالقاء القبض على كثير من المسيحيين ناسباً اليهم تلك الخيانة الفظيعة معاقباً اياهم باشد العذابات الصارمة وحاكماً بالسجن المشدد على كل من وشي عليهِ بهذه الجناية. اما فيلبس فاذ طفقت نار البدع (حسب زعمهم) بالشبوب والانتشار في اسبانيا ملأً السجون من البروتستانت. ان نيرون اضاف على عذاب من توهم بهم ارتكاب الذنوب الاذلال بتوشيحهم بالجلود الدموية التي للوحوش الضارية اذ كانت لا تزال في حالة الاختلاج واما فيلبس فبعد اعمالهِ صوارم الالام والعذابات بالاكليروس والاعيان المتجردين من مراتبهم السامية والمتعرين من اردينهم افتخر بمعاينتهم متزرين بخرايط مرسوم عليها صور الحرباء والضفادع تشخيصاً للبدعة ومراعاة لمرضاة كبرياء القضاة التفتيشية وايعازاً للعوام الجهلاء المتعصبين من الرعب والارتعاد. ان نيرون امر بتمزيق اجسام المسيحيين ارباً ارباً من الكلاب الجائعة او بتهديدهم على الصلبان ثم بايقاد النار بهم عند هجوم الليل. واما فيلبس فامر بخنق البروتستانت في الربط او بايثاقهم على اوتاد توقد بينها النيران ليكونوا قبساً يستضاء بهِ في دجى الليل الحالك بعد تلاوة صورة القضاء في الساحات العامة. واما فيلبس فقدم حرسهُ الملكي الى الجلادين تطوعاً للاسعاف على ايقاد الحطب واثارة اللهيب العتيد ان يبتلع اجسام البروتستانت. ثم قال دوكاسترو الموما اليهِ ايضاً انهُ لم يكن وقتئذٍ امان على حيوة ذوي الفضائل والبراءة وقد اشتعل الاثم والمراياة المعضدان بالترفض الاعمى بالفحص على ادق ظروف الاعمال الانسانية اما الاجتماعات العائلية اذ كانت تقطن المحبة والفضيلة بسلام فالمّ بها صروف الرزايا والدواهي والوشايات الكاذبة قبلت كانها امر لا يشوبهُ ارتياب فغصت اذ ذاك سجون ديوان الاعتقاد من تلك المحرقات الانسانية والجوق القضوي التفتيشي سلم غدراً الى اللهيب اجسام الاكليروس والاعيان ومتقدمي شعب اسبانيا ذاريا رمادهم في الهواء مع انهُ كان اهلاً لان يحفظ في قوارير من رخام

وقد ابدى بعض المتمعنين بحقائق الامور ملاحظات مفيدة من هذا القبيل وهي يا ترى الى اية درجة كانت تتمكن اجراآت التفتيش الصارمة من الوقوف في طريق الاصلاح لولا وجود بواعث اخرى تحول دون الوصول الى الغاية المقصودة. فما دوَّنهُ احد الكتاب عن الاسباب المانعة تقدم الاصلاح في تلك المملكة يصح جوابًا على السوال المتقدم ذكرهُ منها مطمح ابصار القسم الاعظم من سكان تلك المملكة نحو املاكها في البلدان المكتشفة وقتئذٍ حديثًا اذ اتجهت امالهم الى جميع الاموال واحتشادها فكاني والحالة هذه بالعقول قد ثملت من حب الثروة المشوب بالسموم وزاغت عن السعي لتحصيل الغنى الروحي . ومنها ان ادنياء الشعب في اسبانيا لم يصيخوا سمعًا للتعاليم الدينية كما هي مدونة في الكتاب الالهي ولم يميلوا للفحص في القضايا الروحية نظرًا لما كان قد استولى عليهم من الجهل والغباوة هذا وان مورخ حياة كارلوس الخامس الاعتزالية اللبيب يبدي رايهُ المصيب على هذه المسئلة المهمة على الكيفية الاتي بيانها اذ يقول اننا ان فحصنا عن العلة القائم بها نجاح هذه السياسة الظالمة الاغتصابية وان رمنا اكتشاف الدواعي الجاعلة الاسبانيوليين يلتصقون بخرافاتهم حال كون الهولانديين قد طرحوها عنهم جانبًا وان سالنا لماذا هذا الجبار الشديد البأس الذي كانت تخفق الويتهُ على كل بحر وتدوس قدماهُ على كل برٍ شلت يداهُ في ميدان التاملات اللاهوتية فالجواب يحتوي على قضيتين حازت بواسطتها الكنيسة الظافرة في اسبانيا تسهيلات ومنافع جمة لم تكن بموجودة في البلدان المغلوبة . اولها التفتيش المتخص سلطة مطلقة على الافكار قديمة العهد جيدة التنظيم فائقة العلم والدسائس غير مضبوطة بادنى صورة من العدل عديمة الرحمة طبعًا قد عودت الامة على معاينة الدم المسفوك لاجل ما حسبوهُ ضلالًا نظير الماء المهرق ريثما كانت جنود الاصلاح الحديثة قبل تصويب اسنة هذا الديوان الخبيث في حالة الاختشاء والريب خالية من المبادي الصريحة ومن عوائد واختبارات يمكنها من

موافقة الاشياء مع بعضها فلذلك اركنت الى الفرار والانهزام امام صدمات اخصامها نظير هنود المكسيك امام فرسان كورتز وابطاله . واما المصلحة الثانية التي حازتها الكنيسة الاسبانيولية انما هي ارتباطها مع مجد امتها وتحصنها بحماسة شعبها الطبيعية فضلاً عن محبتهِ العميا فالحروب المقامة ضد العرب والخاتمة على اذهان الناس كانوا لا يزالون احياء لذلك الحين انما كانت مجاهدات دينية وحروب صليبية داخلية ظلت نيرانها تشب ثمانية اجيال والكنيسة تقود بها الطلائع وقد قام الصليب على حصون الحمراء عوضاً عن الهلال وليس الوية ايزابلا ومعاقلها . ثم ان الكنيسة كانت قد ازدادت ظفراً تحت وزارة الكردينال كسيمنس واخذت منذ ذاك الزمان بمواصلة الحرب المسماة عندهم بالمقدسة في افريقية وفازت باملاك في اراضي الشرق وقد اعتقد جميع الباباويين اعتقاداً يقينياً ان البارود المشبوب نحو الكفرة انما كان بخوراً عطراً لله وكان في اسبانيا عدد غفير من الناس الذين حولوا تلك الوديان الجميلة الى حدائق غنا وسلاسل الجبال الى معاقل حصينة فهم وان تسموا بمسيحيين فانما كانوا قلبياً على مذهب اخر يترصدون باضطراب وفروغ صبر النجاة من العبودية والحصول على حماية وكان في كل مدينة ايضاً هاجرون اذلا اصلهم من الطائفة العبرانية تمكنوا من جمع ثروة فائقة يتجنبون لحم الخنزير ويواظبون على اكل الفطير في ايام فصحهم . ولم تكن الكنيسة الباباوية بالمتوانية عن المراقبة والتحفظ مما كان يتهددها من هذه الاخطار الداخلية ممارسةً باستحسان الشعب الجاهل جميع ما تتمكن القساوة وسوء الاركان من اجرائهِ لجعل هولاء من الاخصام الالداء ثم لما كانت القرصان البربر تهجم على قرى اسبانيا وشطوطها او تسلب السفن الاسبانيولية بحراً كانت الكنيسة ترسل اعوان الطغمة المدعوة اباء الرحمة لافتداء الاسرى من العبودية الافريقية . لاجرم ان البدعة في اسبانيا او المقاومة لسلطة الكنيسة انما كانتا مقرونتين في افكار عامة الشعب بكل ما هو معيب جداً في

ازمنتهم الماضية وبجميع ما هو على غاية من البغض والهول في الوقت الحاضر. اما في اوروبا الشمالية فلم يكن للكنيسة من النصرات الحربية ما تفتخر بهِ ولم تفز بفرصة تمكنها من القيام بالمحاماة والانقاذ محاماةً ناتجة عن الاحسان الاَّ في ما ندر ولم تكن معروفةً سوى بما يقتضيهِ مركزها الروحي او بكونها سلطة في مملكةٍ ليس لها من العنفوان والظلم اكثر مما هو للملك او امير او بكونها قناة تمتص الثروة الوطنية الى خزينة رومية البابوية. ولم يكن المصلح في اوروبا الشمالية مقيماً الحجة على سوء التصرفات البيعية فقط بل كان البطل القائم بالمحاماة عن الشعب وتقويم اما انهُ واما في اسبانيا فقد القى المصلح المنكود الحظ نفسهُ متساوياً في اعتبار العموم وفي سجون التفتيش مع المتهومين بالفتن والدسائس لاسترجاع خلافة الغرب فامتلأ رعباً وارتعاداً. ولقد ظلت اثار هذا السيل الجارف بعد زوال هذا الهياج بزمن طويل في المثل المتداول على السنة العموم المشير الى المسكنة والذل وهوان وجه فلان بشع قبيح نظير المبتدع

الفصل الرابع

تابع التفتيش في اسبانيا

انهُ في سنة ١٥٦٠ حدث احتفال اعتقاد اخر في مدينة اشبيلية تميز باحراق صورة الدكتور جيل اجديوس فهذا الانسان الشهير كان قد تعين من قبل كارلوس الخامس على ابرشية تورتوزا ثم وشي عليهِ بعد وفاة الامبراطور والموما اليهِ الى التفتيش بالقول بديانة الاصلاح فاتخذ الديوان المذكور اذ ذاك واسطة خبيثة لايقاعهِ في الاشراك وهي انهُ ارسل اليهِ

وقتئذٍ راهباً دومينيكياً يسمى دوسوتو على جانب عظيم من المكر والخيانة فاشار على المذكور مستميلاً اياهُ بالدهاء والتدليس الى الاتفاق معهُ على تدوين رسالة تكون خلاصة العقائد المسيحية فاجابهُ الى ذلك فلما فرغا امر التفتيش ان كلاً منهما يتلو تلك الرسالة في كنيسة اشبيلية الكبرى . اما دوسوتو فوعظ في ذلك الحين ولما ختم عظتهُ طفق يتلو ليس الرسالة المتفق عليها بل اخرى مباينة لتلك كل المباينة فلاتساع الكنيسة وابتعاد جيل الموما اليهِ عن المنبر لم يسمع ما تلاهُ صاحبهُ الموهوم ثم لخلوص طويتهِ وجهلهِ بوجود التزوير شهد مصادقاً بالاشارات على القضايا التي توهم اعلانها . ثم تلى بعد ذلك رسالتهُ فانتهز التفتيش فرصة هذه المنافاة الكلية بين الرسالتين والقى جيل في السجن حاكماً عليهِ بالابتداع فاستمر مدة من الزمان في هذه الحالة ثم جمد بعد ذلك ما يسمونهُ بالاضاليل في كنيسة اشبيلية في ٢١ اب سنة ١٥٥٢ فقضوا عليهِ بالسجن اثني عشر شهراً وبالخلع عن الوظيفة عشر سنوات ثم بالتجرد عن الاموال الاَّ ان مدة سجنهِ طالت كثيراً عن الوقت المعين لاسباب مجهولة فلما اطلق ذهب الى فالادوليد حيث تداخل مع البروتستانت سراً وحضر في اجتماعاتهم الخاصة ثم ادركتهُ المنية اذ كان في ذاك المكان فبعد وفاتهِ باربع سنوات اطلع التفتيش على ما ابداهُ من تلك المداخلة السرية في نهاية حياتهِ فامر بالانتقام من رمتهِ البالية باحراقها وصورتهُ في اللهيب

ثم احرقوا ايضاً في هذا الاحتفال صورة قسطنطين دوفونيت اذ كان قد نجاه الموت الطبيعي من انتقام التفتيش فشخصوهُ متردياً باثوابهِ الكهنوتية وباسطاً ذراعيهِ كانهُ في حالة الوعظ ثم ضبطوا اموالهُ واحرقوا عظامهُ الامر الذي يقوم شاهداً الى ما يلتجي اليهِ التعصب المطلق من الاعمال الصبيانية المضحكة . وقد كان الموما اليهِ واعظاً شهيراً فلما رفعوا الى كارلوس الخامس خبر ابتداعهِ هتف قائلاً ان صح كون قسطنطين مبتدعاً فيكون من المبتدعين الاشداء وقد كان مركزهُ مهماً في مدينة اشبيلية فلذلك استعمل

كل التحفظ في اذاعة تعاليمهِ ومع ذلك لم يسلم من اشتباه التفتيش فاستحضرهُ واقام معهُ مذاكرات شتى الاَّ انهُ ابى المجاهرة النهائية نظرًا لسمو مركزهِ لانهُ لم يكن جاهلاً بما كان يتهددهُ من الاخطار . قال مرةً انهم يرغبون في احراقي لكنهم يجدونني اشد اخضرارًا من ان اشتعل فلم يفدهُ هذا الاحتراز شيئًا بل انقضت عليهِ كواسر التفتيش وصيرتهُ فريسةً لاطماعها قال دوكاستر وراويًا خبر قصتهِ ان ارملة تسمى ايزابيل مارتينز وشي عليها بالبدعة ثم طرحت في السجن وضبطت اموالها كما هي العادة مع كل المشكوعليهم . اما ابنها فاذ سبق وعرف ما هو عتيد ان يحل بها اخفى عدة صناديق تحتوي على حلى ومجوهرات ثمينة جدًا فلم يحظَ التفتيش الا بكمية قليلة مما كان يترصدهُ من اموال تلك السيدة الاان خادمة لئيمة افشت السر واثبتت بان اعظم اموال المشار اليها واثمنها مخباة في منزل ابنها فبادر التفتيش لارسال احد ماموري طغمتهِ يسمى لويس سويتللو للمخابرة مع ولدها فرنسيس بيلتران عن تلك الاموال المختلسة (حسب زعمهم) فعند وصولهِ بادرت بيلتران قائلاً اظن انك اتيت للفحص عما هو مخفي في بيت والدتي فان عاهدتني بانهُ لايلم بي ضرر من جرا ذلك اريك ما هو مكنوز هناك . ثم اسرع باخذهِ الى مسكن امهِ واخذ مطرقة هادمًا بها جزءًا من اسكفة سرداب يتضمن عددًا جزيلاً من كتب وخطوط من تصانيف لوثيروس وكلثينوس ومصلحين اخرين بخط يد قسطنطين المشار اليهِ فحينئذٍ ادركتهُ الاخطار من هذا الاكتشاف الفجائي ثم قبضوا عليهِ طالبين التقرير على تلاميذهِ ومشاركيهِ في الاراء فابى فطرحوهُ في سجن قذر حيث قضى نحبهُ بمرض الدوسنطاريا فلم يكن ذلك ليبرد غليل التفتيش بل اسرع لاحراق صورتهِ وعظامهِ ووسم اسمهِ بالعار والفضيحة لاجرم انهُ لو كان حيًا لما تاخروا عن احراق شخصهِ لامحالة

ومن الحوادث التي تستحق الالتفات في الاحتفال المذكور ما الَمَّ برجل انكليزي يسمى نقولا برتن قد كان منعكفًا على ممارسة صناعتهِ في قادش

واذا باحد اعوان التفتيش اتيًا اليهِ متظاهرًا بمعاطاة شغل معهُ ثم جال بحديث مستطيل عن موضوعات مختلفة وفي اليوم التابع القى الديوان القبض عليهِ سائلاً اياهُ عما تكلم بهِ عن الديانة الرومانية الكاثوليكية وان كان ابدى شيئًا من الاحتقار والازدراء بهذا الصدد فاصر على انكار ما نسب اليهِ فوضعوهُ تحت العذاب غير ان تلك الاجراآت الصارمة لم تثنِ عزمهُ عن التنوه بالصدق ولم يتمكن التفتيش من اغتنام مرامهِ وارغامهِ على الاقرار ومع ذلك قضى عليهِ بالاحراق . اما هو فاستقبل اللهيب بعزم تكل دونهُ صناديد الابطال بحيا يعلوهُ الابتسام والبشاشة فبهت احد القسوس من بسالتهِ ثم هتف قائلاً انني ارى صريحًا علة عدم شعورهِ بالالم وهي لان الشيطان قد تمكن من الاستيلاء على نفسهِ ولذلك قد تعرّى جسمهُ من احساساتهِ الطبيعية ثم ضبطوا اموالهُ باسرها . وقد المَّ باخرين من الاجانب ما يحاكي هذه المعاملة منهم شخصان انكليزيان يسميان فروك وفرامبتن وفرنساوي من مدينة بايون يدعى نابيان فاضرت هذه الاجراآت باشغال اسبانيا وعلاقاتها التجارية . ان في هذا الاحتفال اماتت تلك الاسيرة المشار اليها سابقًا نفسها بالمقص اما جسمها وصورتها فحرقا

ان سرد قصص كل الاسرى والشهداء في الاحتفالات المتواصلة من الامور المستحيلة الاَّ اننا نضطر لان نخصص بعضها بالذكر ليكون دستورًا يشير الى البقية منها رواية جديرة بالتفات خصوصي وهي قصة دونًا جين بوهاركويز المسماة بعد الزيجة دونًا فاركاس . وقد اشرنا في الفصل السابق الى اختها انتجرعة كاس المنون حرقًا وانها لما كانت تحت العذاب وسالها المفتشون عن اختها ماريا هذه فقرّرت بانها لم تبكتها او تنددها على اعتقاداتها على انها كانت اختها الكبرى فبادر التفتيش الى القاء القبض عليها ثم ساقها الى السجن مع انها كانت حبلى وعلى همة الوضع اما المفتشون القساة فاخذوا منها الطفل ثم نقلوها الى سجن العامة حيث تعرفت مع فتاة منكودة الحظ نظيرها صارت فيما بعد شهيدة لقولها بتعليم الاصلاح . فاخذ

تلك الفتاة الشفقة عليها وعاملتها بالحنو واللطافة الا انها لم تلبث حتى وقعت هي ايضاً تحت مخالب العذاب ثم اعيدت الى السجن مثخنةً بالجراح مهشمة الاعضاء مخلعة المفاصل فحينئذٍ اتت نوبة السيدة الموما اليها لان تضمد جراحات صديقتها ببلسم التعازي والاسعاف واذا باعوان تلك الطغمة تسوق جين ايضاً الى العذاب فلفوا على اجزاء جسمها اللينة حبلاً شادين اياهُ بالمخل الى ان انقطعت الاغشية وكابدت من مرارة الالم ما لا يطاق ثم انفجر كثير من الاوعية الداخلية وسال من خياشيمها وفمها جداول من الدماء ثم رفعوها واعادوها الى السجن وهي على اخر نسمة من الحيوة وقد تقرر في الاحتفال التابع عدم قيام الدليل على هذه الوالدة الشابة المكابدة لما مر ذكرهُ من العذاب بكونها مذنبة بما نسب اليها

ان هذه بعض المشاهد الاولى من احتفال الاعتقاد الحديث وقد وليها كثير غيرها في سائر جهات اسبانيا اقيم لها في بعض الاماكن من تلك البلاد عيد سنوي كثر اشتهارهُ لسرعة امتداد اللوثيرية في تلك المملكة. قال كونسا لفيوس مونتدانوس راوياً الحادثة الاتي بيانها المشيرة الى اعمال ذاك العصر المظلم لا جرم انها من الادلة الكثيرة المشخصة الخيانة والنفاق المتصف بهما اجراآت تلك الطغمة المسماة عندهم بالمقدسة وهي ان والدةً تقية في اشبيلية وابنتيها وابنة اخيها وشي عليهنَّ باللوثيرية فاستحضر المفتش احدى الابنتين ثم جال معها بالمفاوضة متظاهراً بالاشتراك معها في حاسيات الغموم والاكدار لاحظاً على سداجتها وفي الوقت نفسهِ حاول ان يحملها على الاقرار بما من شانهِ ان يلطخ الاخرين صار فاً معها عدة ايام بالمذاكرات الودادية فاقتنعت تلك الفتاة السليمة القلب بما تستريح المفتش من الحنو الابوي والرقة راجيةً الحصول على ما عرضهُ عليها من الاطلاق فاعلنت لهُ ما تعلمتهُ من عقائد الاصلاح والاحاديث الجارية بينها وبين انسبائها اعلاناً تاماً فلما نال ذلك الفاحص الخدَّاع مرامهُ امر ان تكرر تقريرها في حضرة احد المسجلين فدوَّن المذكور ما قيل اما هي فاذ كانت تظن نفسها بقرب

ساعة الاطلاق واذا بها قد دُفعت الى العذاب ارغاماً لها على الاقرار بما ادعوا دوام اصرارها على اخفائهِ فكابدت عقاب النورج والماء الى ان فاز الديوان التفتيشي بغايتهِ فوزاً تاماً حيث باحت من شدة الالم بالشكاية على امها واختها وكثيرين غيرهما فلم يلبثوا حتى قبضوا عليهم جميعاً واتوا بهم الى المحاكمة والاستنطاق ثم احرقوهم في نفس الاتون الذي ابتلع تلك الفتاة المنكودة الحظ

وقد حدث في هذا الحين امر سبب انذهالاً واضطراباً عظيماً في اسبانيا والبلدان الاخرى وهو ان التفتيش امر بالقاء القبض على رئيس اساقفة توليدو كارازا اي ميراندا من اسمى عظماء الكنيسة الاسبانيولية ووضعهُ تحت الحجز . اما هذا الرئيس الروحي فقد كان اصلاً راهباً دومينيكياً اتهم في شبوبيتهِ بالوثيرية الا انهُ تخلص من تلك التهمة ناجحاً بما ابداهُ من المحاماة عن نفسهِ من هذا القبيل ثم ارتقى الى كرامات سامية في كنيسة رومية لانهُ صار مدرس الفلسفة ومحدد عقابات التفتيش في فالادوليد وعضواً من مجمع اكليرس كنيسة رومية العام ودوكتور اللاهوت ومحلل الكتب المحرمة . وقد كان حاضراً في مجمع ترانت كلاهوتي الامبراطور ومحامٍ شهير عن الطلغات الدينية في كنيستهِ وقد صاحب الملك فيلبس الى انكلترا حيث كان لهُ يدٌ فعالة باجراآت المصوَّبة اسهمها على البروتستانت . ثم في سنة ١٥٥٨ حاز رتبة رئيس الاساقفة مكافاةً لهُ على صدق خدامتهِ ونشاطهِ . اما الاسباب الباعثة على هذه التهمة الفجائية فكثيرة منها محاماتهُ عما عارضوهُ بهِ من عدم الاقامة بمحل معلوم لانهُ كان دابهُ الجولان والتنقل وتدوينهُ بعد ذلك رسالات بعضد بها اراءهُ وعلاوةً على ذلك جلب عليهِ كراهة ارفاقهِ ولاسيما ميلكيور كانوا اسقف كاناريس ووالدوس المفتش العام . ومنها شروحهُ على التعليم المسيحي المنطوية على التكلم عن الكتب المقدسة بوقار يفوق ما للتقليد وفضلاً عن ذلك اعلانها في اللغة الدارجة . ومنها عدم تقريرهِ الى الديوان عن تلاميذهِ الاولين

القائلين باللوثيرية مع انهُ كان قد بكتهم وحذرهم من عواقب تلك الاضاليل الموهومة . ومنها اشتباههم بميلهِ الى عقائد لوثيروس كما في قضية التبرير بالايمان مثلاً ميلاً اعظم مما تسوغهُ الكنيسة الرومانية قبل انهُ ابدى من الاراء ما يحاكي ذلك في عظة كرزيها في لوندرا بحضرة الملك وتصدى في اوقات اخرى لذكر بيع اوراق الغفرانات في اسبانيا على اسلوب حرك احد سامعيهِ لان يقول ان كارانزا وعظ على كيفية تطابق اراء فيلبس ملانثكون . ومنها ما اتهموهُ بهِ زوراً من الارتياب بحقيقة المطهر اذ كان اخذاً في التكلم عن ذلك . ومنها مدافعته ومحاماته عن وجوب معاملة المبتدعين المتجوبين باكثر حلم وغفران وتخفيض صرامة العقاب عنهم فهذه الذنوب وما اشبهها استدعت انتباه الديوان والتفاتهُ . فلما القوا القبض على مولفاتهِ في منزل الماركيزا دالاكانسيس قررت تلك السيدة انها سالت مرة الاخ جوان فيللاكاريا عن الكتاب المديون اليهِ المولف بالحصول على معارفهِ فاجاب الى مصنفات لوثيروس اما التفتيش فاستنطق الموما اليه فقرر بانهُ اشار ليس الى مصنفات لوثيروس بل الى ايكولامباديوس وانهُ ولئن كان قد استخرج بعض المساعدة من كتابات لوثيروس لم ينفك عن الامانة والصدق في التعاليم الكاثوليكية . وقد ظهر من مرسوم اجازة وجد بين اوراقهِ ان البابا كان قد اعطاهُ رخصة بمطالعة المصنفات الابتداعية وقرر شهود اخرون بانهُ قال انهُ اذ يكون مشرفاً على الموت يرغب في الحصول على كاتب ليقيد عنهُ التقرير برفض الاعمال الصالحة لان اتكالهُ لاجل الخلاص لم يكن الاَّ على استحقاقات يسوع المسيح وقال غيرهم ان ما فهموهُ من هذا التقرير لم يكن الاَّ مطابقاً لما يويد تعاليم الكنيسة الرومانية . ثم شهد الدكتور كازالاَّ بانهُ سمع دومينيسيس دوروكساس ينسب الى رئيس الاساقفة الموما اليه قبول تعاليم الاصلاح غير ان دومينيسيس انكر ماقيل اما العذاب فحملهُ على ان يقرر بصحة ذلك ثم صرح في وقت اخر بما ينافي هذه الشهادة . وقد تطوع للمثول في حضرة الديوان

شخص يدعى جوان دوروكلا شاهدًا بانهُ قد كان من عواد الامبراطور كارلوس الخامس اذ كان مدنفًا وسمع كارانزا يحث الملك على عدم الاتكال على شيء من استحقاقاتهِ بل على استحقاق المسيح فقط . فتجمع عليهِ تهم جمة تحاكي ما ذُكر فلم يكن الملك فيلبس اذ ذاك قادرًا على المحاماة عنهُ لا بل صدق ما بلغهُ اياهُ الواشون عن ان رئيس الاساقفة مذنب ببدعة فظيعة اما البابا بولس الرابع فصرح في اجتماع الكردينالية جوابًا على معروضات المنتشين انهُ قد بلغهُ انتشار بدع لوثيروس وغيرها في اسبانيا وان لهُ محلاً للريب باعتقاد كثير من الاساقفة بتلك الاضاليل وانهُ بناء على ذلك يامر المنتش العام بان يشرع بالفحص على سائر الاساقفة ورؤساء الاساقفة والبطاركة ورؤساء تلك المملكة الروحيين من ذاك الحين الى مرور سنتين ويأخذ بمحاكمتهم وان اشتبه بمحاولة احدهم الفرار يقبض عليهِ ويضعهُ في محل امين ثم يوصيه ايضًا ان يرفع اخبارهم الى السدة البابوية وان يرسل المذنبين مع صور استنطاقهم الى رومية باكثر سرعة فهذا المنشور نفسهُ امر التفتيش ان يسجن رئيس الاساقفة . فاذ تهيأت الامور على هذه الكيفية قر الراي على استعمال الوسائل الفعالة ضد الموما اليهِ اما فيلبس فكان غائبًا عن مملكتهِ وكان يخشى من نتائج الاجراآت الجهارية فكتب الى اختهِ جوانا النائبة عنهُ يبلغها ما ينبغي ان تتعاطاهُ من الوسائل للحصول على المطلوب فكتبت الاميرة الى رئيس الاساقفة تخبرهُ عن سرعة وصول الملك ولزوم انطلاقهِ على الفور لاستقبالهِ في فالادوليد ووجوب تخلصهِ من كل مهمات الوظيفة وانتهاز الفرصة الاولى للحظوى بلقائهِ فاطاع في الحال تلك الاوامر الاَّ ان الرسول الاتي بالامر سقط مريضًا فاستحسن الانتظار وعدم مبارحة مسكنهِ الى حين شفائهِ فاذ عاد الرسول الى الصحة انطلق الى البلاط الملكي متعاطيًا في طريقهِ واجبات وظيفتهِ كالسابق . اما المنتشون فتوهموا ان هذا الابطاء انما هو دليل على قصد سري بالفرار فصمموا النية على عدم افلات هذه الفريسة من مخالبهم ومن ثم اسرعوا الى

مسكن رئيس الاساقفة الذي كان مقيماً وقتئذٍ في توردبلوغونا مع جمهور عظيم يقودهُ رودريغو حامل رسالة الاميرة فامر المومأ اليهِ حينئذٍ اعوان رئيس الاساقفة ان يغادروا ابواب المنزل مفتوحة ثم وضعوا في حال وصولهم حراساً على الابواب واخذوا بالصعود على السلم صارخين افتحوا للطغمة المقدسة ثم تقدموا الى حجرة رئيس الاساقفة واذا بهِ هتف قائلاً من هو هذا فاجابوهُ ديوان الاعتقاد فانفتح الباب . فرفع رئيس الاساقفة ستر سريرهِ ثم تقدم رودوريغو جاثياً على ركبة واحدة وقائلاً بدموع ايها السيد الكلي السمو هل تكرم عليَّ باعطاء يدك والصفح عن هذه الجسارة فاجاب المشار اليه لماذا يادون رودوريغو فبادرهُ مجيباً ارجوك ان تنهض لانني انما حضرت لاصنع امراً تستطيع سيادتك ان تلحظ من وجهي وحاسياتي على مضادتهِ لارادتي ثم وثب متنهقراً واشار الى اعوان الديوان بالتقدم ثم تلا عليهِ امر ديوان التفتيش ممضياً من رئيسهِ فيراندولا والدوس عدو كارانزا المومأ اليه فعارضهُ قائلاً انهُ يابى الخضوع الاَّ للبابا فقط فحينئذٍ عرض عليهِ المفتش دون رودوريغو المنشور البابوي الآمر بالقاء القبض عليهِ . ثم ارسلوهُ سراً الى سجن التفتيش في فالادوليد على انهُ كان يجهل وجودهُ في قبضتهِ وقد حافظوا على كتمان هذا الامر كتماناً كلياً بحيث لم يدرِ بهِ احد الاَّ ان هذه الحادثة الغريبة ذاعت فيما بعد واوعبت قصور اوروبا الملكية من الاندهاش والانذهال . فرفع رئيس الاساقفة دعواهُ الى البابا موضحاً ان للمفتش العام غايات نفسانية عليهِ وانهُ بناء على ذلك ليس هو بقاضٍ خالٍ من الغرض فمحال دون وصول ذلك المعروض عوائق شتى مصدرها ديوان الاعتقاد ثم فوض البابا الملك فيلبس الثاني ان ينتخب قاضياً اخر فعين الملك رئيس اساقفة سانتياغو وانتدبهُ لهذه المحاكمة فاختشى المشار اليه من مسئولية هذه الرياسة في حادثة مهمة كهذه ثم فوض معاطاة هذا الامر الى جماعة من المفتشين من حزب المفتش العام . لاجرم انهُ حدث ايضاً صعوبات جمة بالنظر لانهاء تلك المحاكمة

وانجازها تولد بعضها من رئيس الاساقفة نفسهِ وبعضها من التفتيش فانقضى سنتان بمنازعة القضاة التفتيشية وسنتان اخريان في مخابرات ومقاومات عن مكان المحاكمة وكيفيتها . فجدد رئيس الاساقفة اعراضهُ الى الحبر الروماني متوسلاً اليهِ ان ينشلهُ من قبضة التفتيش وفي اثناء ذلك حدث اضطراب عظيم في افكار العموم عن موضوع محاكمتهِ وانقسمت اراء الديوان من جهة الاجراآت المقتضي اتخاذها من هذا القبيل وعلاوةً على ذلك جدَّ تغيير في الكرسي الباباوي نفسهِ ومن ثمَّ اعترى المسئلة كلها اشد الارتباك الى ان افضت اخيرًا الى نزاع بين بلاط رومية وديوان الاعتقاد . ثم نقلوهُ اخيرًا الى قلعة القديس انجيلو في رومية اذ نجح بعد سجن ست عشرة سنة باقامة البرهان على عدم صحة ما نسبوهُ اليهِ من التهمة ثم قام بخدمة القداس علنًا دلالةً على مصالحتهِ مع كنيسة رومية ثم تنزَّل عن وظيفتهِ ولقد فرضوا عليهِ سجن خمس سنين الاَّ انهم عفوا عنهُ في اليوم التالي ومنوا عليهِ بالاطلاق فانتهك هذا الشيخ الطاعن في السن من هذه النوائب المتكررة وقضى نحبه بعد وقت قصير من ختام محاكمتهِ موكدًا براءتهُ مما رشقوهُ بهِ من التهم . ولقد انهت وفاتهُ كثيرًا من القلاقل والدسائس الطارحة الطعنات البيعية في العربسة والارتباك بل في الخطر ايضًا لاجرم ان اعمالاً كهذه تشخص تشخيصًا غريبًا واضحًا تلك الروح التي حركت التفتيش لان يتخذ هذه الاجراآت وتبين الاشتباه المتجه نحو اسمى العظماء غير المنتظمين في سلك ديوانهِ وتلك البغضة الشديدة المتقدة في صدور تلك الطغمة نحو كل شبه اللوثيرية اي نحو انجيل الحق . ان مولف حيوة كارلوس الخامس الاعتزالية اذ يتامل بقضية كارانزا يقول بالصواب ان لنا سندًا للاعتقاد بصدق الموما اليهِ وخلوصهِ بالنظر الى الديانة الباباوية اذ اقر على فراش الموت بعدم تمسكهِ بالاراء والعقائد الابتداعية فالبروتستانت الناظرون في هذه الايام الى كتابهِ النادر الوجود والممل كثيرًا المحتوي على ما يسمونهُ بالتعاليم المسيحية يجدونهُ ينفث سم روح رومانية

متعصبة لانهُ يبكت البدعة ويحرم استعمال الكتب المقدسة في اللغة الدارجة ويمدح اسبانيا بكونها قد تفردت بالمحافظة على ينبوع الحق الصافي غير المدنس ويحرض فيلبس الثاني على زيادة الاضطهاد وبعظم مريم الدموية ملكة انكلترا كمنقذة نفوس بلادها (ان المومأ اليها اشتهرت جداً باضطهادها الفائق الوصف واعمالها الفظيعة نحو البروتستانت التي قد سودت وجه التاريخ) وقد افتخر بترجيع مليونين من المبتدعين عن اضاليلهم فمن المستحيل والحالة هذه ان نعتبرهُ اعتبار لاهوتي بروتستانتي بل لاندوس حقوق المحبة المسيحية ان اعتبرنا اشتباكهُ في فخاخ التفتيش مكافاةً عادلة على مساعيه الفعالة بالنظر لمنع تقدم الاصلاح الاسبانيولي

وقد المّ حادثة اخرى مهمة في تاريخ تفتيش اسبانيا وهي سقوط دون كارلوس بن فيلبس الثاني وولي عهدهِ في تهمة القول باللوثيرية فتعين عمدة اكليريكية سرية تحت رياسة المفتش العام المنظر في هذه القضية فاجمعت على شجبهِ وقصاصهِ الاّ انهُ لم يلبث حتى ادركتهُ الوفاة سريعاً فترجح الظن عند العموم بان علة موتهِ انما كانت تسميم ابيه اياه لالتصاقهِ باللوثيرية . على ان الاسباب الباعثة على هذا الظن مستندة الى مصادر قوية اماضيق المقام فيضطرنا لان نستغني عن تفصيل هذه الحادثة المكدرة الغريبة بل نقتصر على القول بانهُ سواءٌ كانت تلك الاشاعة وطيدة ام لا فمعاملة فيلبس لولدهِ على تلك الكيفية تدل دلالةً محزنة على غلبة التعصب والترفض على المحبة الوالدية ومع ذلك اثنى اللاهوتيون الرومانيون كل الثناء على فيلبس بتسليم ابنهِ الى سياسة التفتيش حاسبين ذلك ذبيحة تحاكي ما صنعهُ الاله القدير ببذل ابنهِ وابرهيم بتقديم اسحق قرباناً الى ان يقول المادح هيهات ان نرى صنيعاً يضاهي ذلك لان هذا الامر بعيد بمراحل عن كلما نقرأهُ في التواريخ العالمية

ان محاكمة رئيس اساقفة توليدو والمشار اليها الان لم تكن الوحيدة بين امثالها لانهُ ولي ذلك مرافعات جمة على كثيرين من الاساقفة المساهمين

في مجمع ترانت اغلبهم من ذوي المعارف العظيمة والمراتب السامية وارغموهم على الخضوع والاذعان منهم مدرس اللاهوت في الكالا مانسبود كوربوس كريستي ممن استحسن قضايا كارانزا وحكم بارثود كسبة ارائهِ غير انهُ اذ جزع مما اخذ التفتيش ان يجريهُ ضدهُ من الاجراآت لم يجد واسطة للتخلص من مخالبهِ الا التجود وتجب تعاليم رئيس الاساقفة . ثم انهموا احد تلاميذ الموما اليه يسمى لويس دولاكروز والقوهُ في السجن حيث استمر باقيًا خمس سنوات فافضي بهِ الحال الى مرض اوشك ان يعدمهُ الحياة وما ذلك الاَّ انهم وجدوا عندهُ بعض اوراق معلمهِ مع انهم لم يتمكنوا من اقامة الحجة عليهِ وتخطيتهِ . ومن هذا القبيل قضية اخرى غريبة تشخص بعض هذه الاعمال وهي انهم عرضوا على مدرس سالامانكا جوان دوبيغنا بعضًا من قضايا كارازا ليسالوهُ عما يرتئيهِ من هذا القبيل فاجاب مصادقًا على صحتها لكنهُ اذ سمع بسجن المشار اليه انفذ الى التفتيش رسالةً يحاول بها تلطيف ما قررهُ من الاراء عن هذا الموضوع ثم ارغموهُ اخيرًا على جحدها وتشجبها

اما اضطهاد القائلين بالاصلاح فاستمر اخذًا في الاشتداد وانتشر عنهم من الافتراء والوشاية ما يحاكي تلك المعاملة المتجهة الى المسيحيين الاولين على كيفية تجعل وجه الشبه بينهم وبين باكورة المومنين على غاية من التاثير والمطابقة لانهُ في سنة ١٥٦١ شبت نار مهولة في فالادوليد احترق بها عدد جزيل من ابنيتها وثروتها فنسبوا هذا العمل الفظيع الى البروتستانت ولقد كانت البغضة والاضغان المتقدة في صدور هولاء القوم في اسبانيا نحو التعاليم المصلحة على غاية من الاشتداد حتى لما صدر المنشور البابوي الآمر معلمي الاعتراف بجل البروتستانت التائبين ابى التفتيش اعلانهُ

انهُ لا يسعنا الوقت ان نشرح تفاصيل تلك الاجراآت الدالة على الظلم العنيف والالام المرَّة التي تسود تاريخ تلك الاعصر الاسبانيولية فما كنت

ترى اذ ذاك الاّ الأتن النارية تتقد لابتلاع اولئك الافاضل ومرهفات العذاب تتلاعب بهم تلاعب العواصف بالاوراق الخريفية ولم تكن تسمع الاّ اصوات الانين والتنهدات الخارجة من قلوب مزقتها اسنة الويلات والنوائب ترنّ في افاق العالم المسيحي وتملأهُ حزناً. فتحركت احشاء اخوتهم المسيحيين في البلدان الاخرى الممتازة بالحصول على شيء من الراحة والحرية واوعبتهم تلك الاخبار كدراً لا مزيد عليهِ فكتب بعضهم رسالات تعزية لاولئك الامناء المجاهدين في سبيل الحق الالهي والمكابدي الاضطهاد لاجل اسمهِ منهم الدكتور جوان بيريز من مدينة جينوا دوّن رسالةً تنطوي على تشجيع الموما اليهم وتعزيتهم في هذه الاحوال المحزنة

ان من اولئك الجنود الباسلة شخصاً يسمى جوليانو هيرناندیزا اى جوليانو الصغير وزّع في تلك السنة نفسها عدداً جزيلاً من كتب الاصلاح اذ كان مسافراً في معاطاة المصالح التجرية في اسبانيا واذا باخبارهِ قد رُفعت الى مجلس الاعتقاد فبادر لالقائهِ في السجن حيث استمر ماسوراً ثلاث سنوات كابد في اثنائها عذابات كثيرة صارمة ارغاماً لهُ على الاقرار عن مشاركيهِ في الاراء ومن يُظَن ان لهُ يداً بالمداخلة معهُ . اما مامورو التفتيش فاقاموا معهُ اجتماعات جزيلة ابدى بها من الحماسة والنشاط ما حمل تلك الطغمة على ان تحكم عليهِ بالاحراق على الوتد فساقوهُ في احتفال الاعتقاد في ٢٢ ك ١ سنة ١٥٦٠ مكمماً ثم اوثقوا يديه ورجليه بالوتد فحاول ان يجمع حولهُ مقداراً من الحطب تقصيراً لمدة عذابهِ واذ بالكمامة انحلت عن فمهِ فبادر النفوس لتحريضهِ على جحود بدعتهِ . اما هو فوبخهم بجسارة على رياءهم وخداعهم قائلاً ان ليس الارتياع من المنية بصدهُ عن الاقرار بتلك التعاليم المشابهة لما يعتقد بهِ ثم سلم الروح ببسالة الابطال وثباتهم فاعترى مضطهديهِ غاية الانذهال والحيرة وتاثر معاينو حتفهِ كل التاثر من هذه الحماسة حتى الجلادون انفسهم لم يتمالكوا من الاندهاش

وقد انعكف المفتشون في ذلك الزمان على التمرغ باوحال المظالم

والفواحش الفظيعة فهاجر كثيرون من الاسبانيول والتجاوا الى جرمانيا واسوج وهولاندا وانكليترا اما اسقف لوندرا فاعد في هذه العاصمة منزلاً عظيماً مخصصاً اياه بهاجري الاسبانيول لاجل اقامة عبادتهم بيد اما الملكة اليصابات فانعمت عليهم بمبالغ جسيمة اعانةً لهم على هذا المصاب فحرّكت هذه الاعمال الخيرية تشكيات الفارو دولاكوارارا سفير فيلبس الثاني . وفي سنة ١٥٦٨ طرد يوحنا مانس رئيس ثمامسة كلوستر وسفير انكليترا في بلاط مادريد ليس لتعدٍّ صدر منهُ بالنظر لمركزهِ السياسي ولا لامدادهِ شهداء التفتيش بالاسعاف بل لما حسبوهُ حرية متجاوزة الحدود في احاديثهِ الاعتيادية ولم يكن ذنبهُ الا ماصرّح بهِ في وليمة حافلة بكون فيلبس الثاني الملك الوحيد فيما بين ملوك اوروبا الممتاز بالمحاماة عن البابا

ان الحبر الروماني اصدر في سنة ١٥٧١ تحت نظارة فيلبس المومأ اليه منشوراً الى مفتش اسبانيا العام يامرهُ بهِ بتاسيس ديوان تفتيش يقوم بالفحص عن السفن وذلك بناءً على دعواه الموهومة بالسلطة على ممالك المسكونة وتقسيمها حسب مشيئتهِ فلم يكن رئيس التفتيش بالمتوانين عن اطاعة هذه الاوامر وقد اشتهرت مدينة قادس شهرةً تمتاز عما سواها من المدن في القيام باجراء تلك المراسيم . اما ذلك المنشور الباباوي فنوض ماموري التفتيش وضباطهُ بالدخول الى سائر السفن والقاء الحجز على كل الكتب المحرمة غير ان هذه المداخلة بالمصالح التجارية كانت اشد ضرراً وعاراً من ان تستمر طويلاً فلم يلبث هذا النظام الحديث حتى صار في زوايا الاهمال لا يعتد بهِ احد

وقد حدث في سنة ١٥٨١ حادثة اخرى مهولة تدل على تجفيف التعصب الاعمى ينابيعَ المحبة الوالدية وهي ان احد الاعيان في فالادوليد اشتكى على ابنتيهِ الى التفتيش بالقول باللوثيرية اما ذلك الديوان فعوضاً عن ان يلقيهما في السجن كما هي العادة سمح لهما بالبقاء تحت مناظرة والدهما وعنايتهِ في المنزل (لانهُ كان للمفتشين مزيد الاركان والثقة بالمذكور) العلة يتمكن

بمساعدة الاكليروس وماموري الفحص من ترجيحها وحملها على الاقلاع عما حسبوهُ بدعة. فلم تستطع تلك الواسطة على الاتيان بالمقصود فاستشاط الوالد غضباً وساقها الى التفتيش متشكياً من عنادها القبيح فحكم الديوان على كلتيهما بالموت فانطلق ذاك الاب القاسي وصدرهُ يتوقد من التعصب الوحشي الى الحرش ليقطع وقودًا الى النيران العتيدة ان تبتلعها. اما المفتشون فليس باقل بربرية وترفض اثنوا على هذه الغيرة الجديرة حسب زعمهم لان تكون نموذجاً لابناء الكنيسة الامناء فاستنز ذاك الوالد الاحمق اسير الغباوة وعبد تلك الكنيسة الكاذبة حمية الحمد المتجه اليه لان يلتمس من الفاحصين الرخصة لايقاد صبرة الحطب بيديه ففاز بالمرغوب فضجوا هاتفين بالصنوج والابواق تعظيماً للايمان الكاثوليكي واعلانًا لهذا الطلب الخبيث بل اظهارًا لما منحوهُ من الاذن اجابةً لهُ. هل من فرق وامتياز بين هذه الاعمال القبيحة واعمال اشر الوثنيين واجهلهم بحكم العاقل

ان من رحمة الخالق نحو الجنس البشري كان قد ازف الزمان لانحطاط شوكة هذا الديوان الشرير وقوتهِ اما ابتداء ظهور هذا الاضمحلال فكان سنة ١٥٩٨ اذ تبوأ فيلبس الثالث عرش اسبانيا الاَّ انهُ مع ذلك ارتاى ربما بنوع غير مقصود راساً طرد العرب النهائي من اسبانيا على ان ضيق المقام يضطرنا لان نستغني عن وصف تلك الحادثة الشهيرة في هذا الكتاب الصغير

اما ارتقاء فيلبس الرابع الى كرسي الملك سنة ١٦٢٠ فصار اشهارهُ باحتفال اعتقاد في مادريد لم يحرق بهِ احد من المبتدعين وقد فوض هذا الملك التفتيش بالفحص عما عساهم ان يصادفوهُ من البضائع المهربة مع الاسبانيوليين النازحين عن اوطانهم مرخصاً لهم بامتلاك ربعها لانفسهم خاصةً

وقد تميزت سنة ١٦٢٠ في تاريخ التفتيش بسجن ويليام ليثغو السكوتلاندي بدعوى انهُ جاسوس مستخدم من قبل البوارج الانكليزية الامر الدال على

ان الفنتيش انتقل تدريجاً من كونهِ دبوانا روحياً الى صيرورتهِ محكمة تتعاطى المصالح الدنيوية معاطاة سياسية . فما كابدهُ الموما اليه من العذابات الاليمة جدير بالذكر اما قصتهُ الاصلية فمطولة ومدونة في لغة قديمة العهد لكننا نقررها هنا بكل ايجاز فنقول . انهُ حالما القوهُ في السجن بادروا لتفتيشهِ ثم جردوهُ من نقود جسيمة اعدها لسفرة شاسعة وكبلوهُ بقيود ذات قضيب طويل مشدود بين كاحليه على كيفية لم تمكنهُ من الوقوف مطلقاً قال المشار اليهِ ان القيود كانت اثقل من جسمي بثلاث مرات ثم زارهُ الحاكم في السجن وحرضهُ على الاقرار بكونهِ جاسوساً فاعلن ذاك الاسير براءتهُ فتهددهُ بغيظ شديد قائلاً ان العذاب سوف يرغمهُ على الاقرار بصحة تلك التهمة ولم يسمحوا لهُ بالحصول على فراش او وسادة او غطاء وقال الوالي سدوا نافذة حجرتهِ بالكلس واحجبوا ثقوب الباب بحصر مضاعفة واضعين عليهِ قفلاً اخر كي ينزع عنهُ كل ما من شانهِ ان يمكن جسمهُ من بعض الراحة والتعزية ثم نقلوهُ في عربة الى معصرة قائمة على انفراد بين الكروم حيث كانت الات العذاب معدة لان تفتك بهِ . فلم يزل مصراً على النفوه بالصدق ولم يحصل المفتشون على مرغوبهم فامروا الجلاد بنزع قيودهِ قال انهُ اذ كان الجلاد اخذاً بذلك صدمني فوق كاحلي بدقر فتاوهت متوجعاً من جرا ذلك لانني كنت خاير العزم للغاية ولم اتناول في الثلاثة ايام الماضية الا وقية خبز وقليلاً من الماء فقال ذاك العاتي آه ياخاين ان هذا كلهُ ليس بشي نظراً لما سوف يصيبك من الشدائد ان دمت مصراً على الانكار . ثم اجروا عليهِ عذاب البكرة والنورج والماء فاطبق الاسير شفتيهِ في اثناء النازلة الاخيرة منعاً لسيلان الماء عليهما واذا بالجلاد مبادراً الارغامهِ بقوة السلاح على فتحهما اما المفتشون فلم يكفوا عن اقامة فحصهِ في اثناء هذه العقوبات . قال ايضاً انني اضطجعت على النورج ست ساعات متوالية من الساعة الرابعة بعد الظهر الى العاشرة ليلاً بعد ان انزلوا بي ستة وستين نوعاً من العذابات ومع ان جسدي

كان مضرجاً بالدماء ومتخناً من الجراح الخارقة الى العظام المنسحقة ومهشماً مما كابدتهُ من الالام المرة رفعوني نصف ساعة كاملة واحنوني احناء كلياً فلم املك والحالة هذه من الصراخ والدمدمة والتوجع والتاوه والولولة والصرير باسناني الى ان خرجت عن دائرة الصواب من تجرعي تلك الغصص التي لا تطاق . فمن يراني بتلك الحالة ولا يرتاع ويفطر قلبهُ دماً مما اصابني من الالم غير المحتمل ثم منوا عليَّ بتخفيض الاوجاع وفكاك جسدي الى ان يقول ان ما داهمني في ذلك الوقت المهول من الالام العقلية والاوجاع الجسدية تفوق ادراك العقول البشرية ادراكاً حسياً او التعبير عنها بالصبر تعبيراً كافياً . فلما رفعوا راسي بايديهم ونزعوا جسمي عن النورج تدفق الماء مفجراً من فمي فاغمي عليَّ مرتين اما بدني فكان منسحقاً ملطخاً بالدماء وباردا مختلجاً وعرياناً فالبسوني الثياب وانعشوني بقليل من الخمر وبيضتين سختين ليس شفقةً وحباً بل لاجل تعويقي على مكابدة عذابات اخرى . ان العقل يوشك ان لا يصدق ان انساناً تلاعبت بهِ اسنة الجوع المفرط وصروف الرزايا الى ان خارت عزائمهُ خواراً هذا مقدارهُ يستمر حياً بعد ذلك قال ايضاً انهم اوثقوا اخيراً رجلي بالزناجير المرعبة ثم حملوني على اذرعهم الى العربة ومنها الى سجني السابق دون ان اتمكن من مشاهدة المدينة او احداً من ساكنيها الا معذبي المردة القساة ثم وضعوني على الاحجار حيث كنت سابقاً ورجليَّ مرتفعتين ارتفاعاً متساوياً وارسلوا حاظر التركي المنكود الحظ ليتولى حراستي في الجزء الاخير من تلك الليلة المهولة . وفي الغد دخل الوالي الى حجرتي متهددا اياي بزيادة العذاب ارغاماً لي على الاقرار وقد جعل عربتهُ ان ترعد عند بابهِ وحول المكان المضطجع بهِ في كل سحر قبل بزوغ الفجر والسنة جمة ان تزمجر ابواباً ان تنفتح قاصداً بذلك تخويفي وليحملني على الاعتراف بغير الصدق فدامت عواصف الدواهي تتجاذب بني على هذه الكيفية خمسة ايام الى عيد الميلاد . ثم بعد مكابدة انواع عديدة من العذابات المتكررة ارسلت العناية لنجاتهِ بعضاً من تجار ملقا

الانكليز حيث اتفق حضورهم على سبيل المصادفة فاكتشفوا محل سجنهِ ثم سعوا بمداخلة قنصل الانكليز ومساعدتهِ على اطلاقهِ من الاسر ففازوا بالمرغوب وبعد قليل من وصولهِ الى انكلترا زارهُ في سنة ١٦٢١ الملك يعقوب الاول واعدّاياه بتحصيل تعويض لاضرارهِ والظاهر انهُ لم يحظَ باتمام الوعد المذكور ثم توفي اخيرًا في مارشالزي

ثم ولي ذلك حادثة اخرى تفوق ما تقدم صرامة وهي ان احد التجار الانكليز المسمى بجاورجيوس بين عم ويليام بين الشهير كان قاطنًا في جنوبي اسبانيا لمعاطاة مهنتهِ تزوج من سوء حظهِ بسيدة كاثوليكية فانهم بالسعي على ازاغتها عن ايمانها الاصلي واستمالتها الى البروتستانية فالقوا عليهِ القبض بغتةً ثم طرحوهُ في سجن قذر وضبطوا كل اموالهِ وموجوداتهِ حتى المسمار الكائن على جدار منزلهِ . ثم اخذ واجلدوهُ بالسياط المرة بعد الاخرى جلدًا عنيفًا الى ان صار جسدهُ نظير مجموع قروح صديدية فاسمر مطروحًا في السجن ثلاث سنوات ثم اتوا بهِ عند نهايتها الى حجرة العذاب حيث بسطوهُ على النورج وطفقوا يعذبونهُ اشد العذاب الى ان اندكت عزائمهُ وفرغ صبرهُ وثباتهُ فسلم حينئذٍ من شدة الالم بما اتهموهُ بهِ من الجنايات واعدًا بانهُ يحيي ويموت على الايمان الروماني . قال الراوي لهذه الوقائع انهُ حالما منَّ عليهِ الباري بالشفاء وتمكن من المشي قليلاً سبق في موكب احتفالي الى كنيسة اشبيلة الكبرى مصحوبًا بسبعة قضاة وال منازلهم ومئات من القسوس والرهبان وجمهور عظيم من الشعب حيث عرضوه في حضرة ذلك المشهد كشاهد على رحمة التفتيش الكلية ودليل على شفقتهِ . اما زوجتهُ فطلقوها منهُ وارغموها على التزوج بكاثوليكي متعصب واستولوا على اموالهِ البالغة نقودًا ومفروشات وحلى وامتعة وبضائع متجرية اثني عشر الف ليرة انكليزية ثم سلبوا ما كان بين يديه من الدراهم خاصة عملائهِ وشركائهِ في الاشغال وامروهُ بالرحيل عن المملكة بعد ثلاثة اشهر متهددين اياهُ بالموت ان ابى الخضوع لتلك الاوامر . فهذا التهتيم الاخير انما اضاف الى

اضرارهِ بغياً وعدواناً لانهم علموا يقيناً عدم امكانية ايفائهِ تلك الديون لتجردهِ من الاموال وان لابد من قيام السلطة السياسية بالقاء القبض عليهِ حال خروجهِ من الكنيسة وطرحهِ ثانيةً في السجن اجابة لمطلوب دائنيه فكان الامر كذلك فيئس حينئذٍ من الفوز بالاطلاق ثانيةً . الاَّ انهُ من حسن الحظ اطلع على مصابهِ اذ كان في تلك الكنيسة بعض تجار الانكليز القاطنين في اشبيلية فبلغوا ذلك الى اخيه الشاب الادميرال بين عند محطتهِ في الخليج فلم يرفع الدعوى الى رئيس جمهورية انكليترا كراموبل المتولي وقتئذٍ زمام احكامها ويحرك سياسة لوندرا ومادريد للسعي باطلاقهِ لانهُ علم ان ذلك انما يستدعي مخابرات ومراسلات شتى يضيع بها الزمان بحيث يصير اخوهُ عرضة لالام ومشقات جديدة بل شرع باجراآت اشد سرعة وفاعلية من ذلك وهي انهُ قبض بين غنائمهِ على شريف اسبانيولي يسمى جوان دواوريينو اذ كان مسافراً وقتئذٍ الى فلاندرس للقيام بوظيفة كاتم اسرار الحكومة ثم جردهُ من ثيابهِ معاملاً اياه معاملة الاسرى المحتقرين فاثر ذلك بملك اسبانيا اذ لم يتمكن والحالة هذه من المحاماة عن المذكور وانقاذه من ايدي الخصم المشار اليهِ فبادر لاطلاق جاورجيوس بين في الحال ثم ارسلهُ الى انكليترا . الاَّ انهُ لم يحصل على ما يعوض خسائرهُ والامهُ لان وفاة رئيس جمهورية انكليترا الموما اليه حالت دون وصوله الى المطلوب ثم لما اعيدت الملكية عينهُ كارلوس الخامس معتمداً خاصاً في بلاط اسبانيا ليتمكن من اقامة دعواهُ باضرار جسدهِ واموالهِ اقامةً مبنية على الاهمية والقوة . غير ان تلك العدالة المادية اتت بعد فوات الزمان لان لحمهُ المتكرنش من الشيخوخة كان مهشماً واعضاهُ مخلعة سيئة التركيب وجسمهُ منهوكاً من الهزال لاعالتهِ ثلاث سنوات على الخبز والماء فادركتهُ المنية في لوندرا بعد اسابيع قليلة من حظواه بذلك المنصب السامي مخلفاً دعواه الى الادميرال اخيهِ وعائلتهُ ميراثاً شرعياً . اما هذه الدعوى فلم تنجح ولم يفز وارثوه بالحصول

على ما يعوض تلك الخسائر لان لارجاء من ان التفتيش يتقيا ما ازدردهُ في جوفهِ من الفرائس

ان فيلبس الرابع توفي سنة ١٦٦٥ وخلفهُ على الكرسي كارلوس الثاني اما المجالس التفتيشية فاشتغلت في الغالب في اثناء حكومتهِ بالفحص عن الدعاوي المتعلقة بالسحر والشعبذة الا انهُ عند زواجهِ حدث احتفال اعتقاد ظهر بهِ مئة وثمانية عشر اسيرًا احرقوا منهم ثمانية عشر شهيدًا وقد ذكرنا في الفصل الثالث ظروف هذه الحادثة . ثم توفي كارلوس الثاني وخلفهُ فيلبس الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملك فرانسا فتحول التفتيش وقتئذٍ من كونهِ ديوانًا دينيًا الى صيرورتهِ آلة سياسية اقرها فيلبس الموما اليه طبقًا لمشورة جدهِ الذي اجلسهُ على كرسي المملكة اما التفتيش فصير حينئذٍ الماسونية هدفًا لنبالهِ لان ديانة الاصلاح كانت قد بادت واضمحلت من تلك البلاد لاجرم ان هذا دليل مكدر على انتصار القوة الانسانية على الحق الالهي انتصارًا في ظاهر الحال والى وقت معلوم

ان ممن وُشي عليهِ بالبدعة في اثناء هذه الخلافة شخص انكليزي يسمى اسحق مارتين اتهموهُ باليهودية لانهم عثروا معهُ على توراة عربية وكتب اخرى مختصة بالعبادة فلما احس باقتراب الخطر عزم على مباينة تلك البلاد ففشى ما حاول كتمانهُ من هذا القبيل واذا بهم قبضوا عليهِ وساقوهُ الى ديوان الاعتقاد في غرناطة حيث قدموا عليهِ الشكاية باحتقار الديانة الكاثوليكية والتكلم عنها بعدم الوقار فالقوهُ في السجن وقتًا طويلاً فاحصين اياهُ فحصًا مدققًا ثم حكموا عليهِ بالنفي من البلاد الاسبانيولية ثم اركبوهُ على اتان جالدين اياه في الطريق مئتي سوطٍ وارسلوهُ الى ملقا فتمكن بعد مكابدة مشقات قادحة من الوصول الى سفينة انكليزية فرَّ بها هاربًا اما الامتعة المسلوبة منهُ فلم يردوا لهُ منها الا شيئًا قليلاً

ان عدد من احترق بالحميوة في اثناء حكومة فرديناند السادس المبتدئة سنة ١٧٤٦ يبلغ عشرة انفار فقط من اليهود المرتدين عن ايمانهم

المسيحي ان صح القول بتمسكهم به وان كان نصف هذا العدد كافيًا لان يحرك في العصر الحاضر انزعاجًا واضطرابًا بين ادنى ممالك اوروبا واشدها ظلمة فانما هو دليل بالمقابلة مع الماضي على سرعة انتشار نور المعرفة وانفتاح الاذهان والبصائر . لان امتداد العلوم في ذاك العصر اعان على تخفيض الاضطهاد لانهُ بازدياد المعارف تناقصت تلك الاعمال البربرية ولقد ظل الاضطهاد اخذًا في الانحطاط في حكومتي كارلوس الثالث وكارلوس الرابع التابعتين بيدَ انهُ في خلافة اولهما تجاسر المفتش العام على ان يرتئي اصلاح ديوان الاعتقاد وان يقدم رايهُ عن لزوم تنقيتهِ . ان شخصًا يسمى دون مخائيل سولانو قال في زمان خلافة ثانيهما بما يسمونهُ بدعة فلم يبادوهُ الا بان شنقوا عليهِ حاسبين اياه مختل العقل مع انهُ لو كان في تلك الاعصر المذكورة لاحرقوهُ لا محالة

ان ليس من شان هذا الكتاب وصف ما استعملهُ نابوليون بونابارت من الدسائس لافتتاح اسبانيا سنة ١٨٠٦ على انهُ لم يتمكن من المحافظة على تملكها حتى ولا بمعونة قوتهِ العسكرية العظيمة المرسلة لقهر تلك المملكة واخضاعها عنوة فقط نقول انهُ لما نصب صولجانهُ بقرب مادريد اصدر امرًا بالغاء التفتيش فكان كذلك ياليت كل اعمال نابوليون كانت خيرية وحسنة كهذه المنة

وعند رجوع فرديناند السابع الى كرسي الملك سنة ١٨١٤ اتجهت اجراآتهُ الاولى الى اعادة ديوان الاعتقاد الى ما كان عليهِ مدعيًا باصلاحهِ اما قوة الشبهات والوشايات فعادت كالاول وفي سنة ١٨١٦ وردت رسالة من البابا بيوس السابع تامر بمنع اجراء العذاب وضم جراآت ديوان الاعتقاد الى مجالس اخرى فان سال سائل ترى ماهي النتائج الناجمة من ذلك فنجيبهُ القصة التابعة جوابًا يفهم الحجة على مناقضة ذلك المنشور وعدم التصرف بموجبهِ وهي مختصرة من مولف اذاعهُ جوان فان هالين من القواد الممتازين في خدمة اسبانيا العسكرية وبعد فرارهِ من مخالب

التفتيش انضم الى الجيش الروسي ثم تقلد رياسة حكومة بلجيكا الموقتة . وقد كان الموما اليه متوظفاً في حكومة يوسف بونابارت اخي نابوليون الاول فلا يغرب عن التصديق صيرورتهُ موضوعاً للشبهة . فبليلةٍ ما جد لهُ داعٍ للخروج من منزلهِ ليلاً واذا بالجنود احاطت بالمسكن المذكور بعد ساعة زمانية ثم تقدم رجلان ملتفان بعباءتيهما الى الباب قال المشار اليه ان خادمي سمع القرع الشديد المتكرر وتطلع من الشباك فامرهُ بفتح الباب فاتى وحينئذٍ اخبرهُ باسميهما وقد كان احدهما الحاكم ابريبري والثاني المفتش الاكبر سناً فاجابهما الخادم انهُ وان كانت وظيفتهما سامية وسلطتهما معتبرة فقد اتيا امراً فريداً واقاما شبهة غير عادلة بحضورهما في ذاك الحين على تلك الصفة وانهما ان لم يعودا يرغمها على ذلك ثم اراهما من النافذة سلاحاً نارياً متهدداً اياهما بهِ فاخشى المفتش الشيخ وتردد متقهقراً واما الحاكم فكان اشد جسارة منهُ فامر الجنود بالتقدم وفتح الباب رغماً ثم ولج وامرهم بلقاء القبض على الخادم وتفتيش البيت فبينما هم يجرون ذلك عثروا على الطباخة اخذةً في الوثوب من الشباك للفرار والتمكن من التفتيش عليَّ وتحذيري من الخطر

اما المشار اليه فلم يكن عالماً بما كان كامناً لهُ من الدواهي فعاد الى منزلهِ صباحاً واذا بهم قبضوا عليهِ قبض الكواسر على فرائسها قال ايضاً انني حينئذٍ تاكدت ما هو امامي من شؤم النصيب اما الوقت فكان عند بزوغ الفجر ثم امر الحاكم باحضار عربة الاسقف لانطلق بها الى التفتيش اما انا فالتمست الاذن بالذهاب ماشياً فاجاب ان الجنود المتسلحة لا تصاحب اسرى التفتيش الى مجلسهِ ثم اضاف متهكماً انك سوف تتشرف بالانطلاق الى هناك في عربة جيدة فلما تهيات دخلتها ورافقني الوالي المشار اليه وجاءهِ ومعاونهُ بعد ان امروا الجنود باتباع العربة مشاةً على مسافة منها . وحينئذٍ غاب عن عيني منزلي واتباعي وارفاقي الفتيان وانقطع عني رجاء معاينة نور النهار فيما بعد . ولقد ظل مسجوناً وقتاً طويلاً اما الحراس فعاملوهُ اولاً

باللطف والرقة غير ان ذلك لم يدم الاَّ قليلاً بل تحول ذلك الي الصرامة والعنف لاجرم ان المطالع يقف على حقيقة ذلك مما يتكلم بهِ الموما اليه عن نفسهِ . قال انهُ بليلةٍ ما دخل دون جوانيتو الى سجني الساعة الثامنة بعد الظهر حاملاً بيدهِ فنارًا يتبعهُ اربعة رجال مجوبو الوجوه بقماش مسدول من رووسهم الى اكتافهم وصدرهم هيئتهُ عند اعلاه مخروطية لهُ ثقبان لاجل العينين فكنت اذ ذاك في سنة النعاس الاَّ انني استيقظت من صريف الابواب ثم لمحت من نور الفنار الخفيف تلك المناظر المرعبة فتوهمت بانني اعاين حلمًا وما لبثت حتى تفرست بهولاء القوم واذا باحدهم دنا وجذبني من السير الجلدي الموثق بذراعيَّ منبهًا اياي بالاشارة على وجوب نهوضي فاطعت الامر ثم غطوا وجهي ببرقع جلدي وساقوني الى خارج السجن . فبادر المفتش لحثهِ على الاقرار بحرارة لامزيد عليها فلم يفز بمرامهِ وحينئذٍ حلت بهِ دواهي عذاب من شانهِ ان يلطخ التفتيش بالعار والفضيحة تلطيخًا موبد الاتخاذهِ اجراآت اجدر باعمال الاعصر المظلمة مما هي بالعصر التاسع عشر . قال ايضًا ان ما حل بي من الاضطراب في تلك الساعة المهولة صدني عن التفوه الا بكليات قليلة لم يصغَ اليها احد ثم اسرعوا بي الى طرف الحجرة اما السجان ومعاونوهُ فتشبثوا بي كل التشبث حذرًا من انفلاتي من ايديهم ثم رفعوني عن الارض واضعين تحت ابطيَّ عصوين طويلتين اوثقت بهما ثم علقوا ذراعي بالعصا المقابلة الى التي تحت يدي واما الشمال فاسمرت بهيئة افقية ثم علقوا يدي في مقطرة تمتد الى المعصم وتحصرها حصرًا لامزيد عليه يتشعب منها قضيبان حديديان يصلان حتى الى الكتف حفظًا للجميع في المركز المنتصب عليه وربطوا حقوي ورجلي بالعصوين المرفوع عليهما على كيفية تحاكي ما تقدم فاسمررت على هذا المنوال جامدًا دون ادنى حركة الا التنفس بيدَ اني لم اتمكن من ممارستهِ سوى بغاية الصعوبة . ثم اخذوا يسالونهُ اسئلة تنطوي على التحضيض بصفة الايجاب والتسليم فانكر التهمة قال ايضًا ان القمطر المسنود عليه

ذراعي كان مستقرًّا على دولاب اخذ حينئذٍ بالدوران فشعرت تدريجًا بالم يفوق الاحتمال ولا سيما من المرفق الى الكتف حدث منهُ تشنج في بنيتي كلها وتصببتُ بالعرق البارد هذا والسوالات متتابعة اما انا فلم بطرق مسامعي في وسط تلك الاوجاع المرة الا سوال زوريللا وهو هل الامر كذلك هل الامر كذلك ثم اشتد عليَّ الالم فغبت عن الصواب ولم اعد اسمع صوت هولاء الوحوش الضارية . ولما عاد لي الوعي الفيت نفسي مطروحًا على ارض سجني ويديَّ ورجليَّ مكبلات بزناجير وقيود ثقيلة مربوطة بسلسلة غليظة كان لا يزال معذبيَّ يغرزون اوتادها ثم نزعوا عن وجهي ذلك الحجاب القبيح وانصرفوا الى حيث فجررت نفسي كمن في النزاع الى الفراش صارفًا تلك الليلة بجهاد شديد مع الامي الكلية مما رزئت بهِ من ذلك العذاب المهول اما عقلي المضطرب فلم يتشخص امامهُ الا روعى مريعة مما دامني من الويل وسوء الحظ وازدادت عليَّ الحمى ازديادًا كليًّا فسقطت في هذيان وبحران كدت ان لا اشعر معهُ بما صنعهُ السجان والحراس من فتح خياطة ردائي للفحص عن حالة ذراعي . انهُ بعد مساعٍ ووسائط بطول ذكرها دبر الموما اليه طريقة للفرار والنجاة من معذبيهِ . ربما يسهل على الكتاب الربا وبين انكار ما قيل او الادعاء بوجود المبالغة او سوء التقرير مستندين الى عدم الاركان بشهادة شاهد واحد لان من شان تلك الظروف ان لا تسمح لاحد من معاينة ذلك الا معذبيهِ واتباعهم اما القاري الخالي من الاغراض الناظر الى الامور بعين التبصر والانتقاد فلا بد ان يسلم بعد تمحيص البرفيس الاعمى وتصرف ذلك الدبوان الخبيث بكلها ينقلهُ عنهُ الرسول الاعمال الجهنمية فليطالع القاري هذه الحادثة الاخرى الاتي بيانها بحكم لنفسهِ . ان معلم مدرسة في بوسافا قرية في جوار فالينسيا شاع عنهُ بكونهِ من طائفة الكويكرس (طائفة من المسيحيين ممتازة بالمحافظة على الصدق وتجنب الاقسام ومحبة السلام والاتحاد لها بعض عقائد غريبة منها عدم ممارسة سرّي المعمودية والعشاء الرباني وعدم الصلاة من دون

تحريك الروح القدس اياهم) فاشتكوا عليهِ الى ديوان الاعتقاد حيث قضي عليهِ بالابتداع وطرحهِ في سجن القديس ناركيسوس مع سفلة العوام قال الراوي لهذه القصة ان رئيس ديوان الاعتقاد كان قسيساً من فالينسيا اجتهد كل الاجتهاد في تحريضهِ على جحود بدعتهِ وانكارها فاجاب سلباً موكداً عدم استطاعتهِ على التكلم خلافاً لضميرهِ والكذب على الله . فقضوا عليهِ بالشنق ثم نقلوهُ الى سجن المحكوم عليهم فرضخ الى المشيئة الالهية ثم اتوا بهِ في ١٢ تموز سنة ١٨٢٦ الى النطع ولوائح السكينة والوقار تتلامع من اسرَّة وجههِ ولم يكن لابساً الرداء الاسود القانوني المختص بالمبتدعين بل كان متسربلاً بجبة وسراويل سمراء يزين محياهُ سمات المهابة والرصانة والتسليم يقودهُ الاب فيلكس من الرهبان الكرمليين الحفاة فرفعوا الصليب عن النطع ثم حثوهُ على الاقلاع عن ارائهِ فاجاب هل تقضون على من اجتهد بحفظ وصايا الله فلفوا الحبل على عنقهِ وحينئذٍ التمس من الجلاد ان يمهلهُ قليلاً ريثما يصلي ثم رفع عينيهِ نحو السما مصلياً وفي بضع دقائق اسلم الروح قال المولف انني عاينت نفس البقعة الصاير بها هذه الحادثة وتكلمت مع البعض ممن قد شاهدوا استشهاد المعلم الموما اليه بعيونهم

انهُ بعد وفاة فرديناند حصل في اسبانيا تغيرات سياسية شتى من بعض نتائجها الغاء التفتيش ثانيةً سنة ١٨٢٤ ولسائل ان يقول ترى هذا الالغاء وقتي او ابدي فالجواب يحتاج الى تدقيق النظر واقامة البرهان والدليل والمظنون من تعديل عدد الواقعين في قبضتهِ ممن حسبوهم مبتدعين ان ابادتهُ لم تتم تماً كاملاً في ذلك الحين . اما مصدر المعرفة المستند عليها من هذا القبيل فهو لورانت اذ هو ممن يركن الى شهادتهِ في هذا الباب لاحاطتهِ علماً بالتفاصيل المدققة المختصة بهذا الديوان لان الفرنساويين قلدوهُ امر الفحص عن تواريخ تلك الطغمة المدعوة عندهم بالمقدسة فلذلك كان ممن حصل على الفرص المناسبة للوقوف على الحقائق وقوفاً صحيحاً

اما التعديل المذكور فهو كما ياتي وذلك من سنة ١٤٨١ الى سنة ١٨٠٩

٢١٩١٢ من قضي عليهم واحترقوا

١٧٦٥٩ صور المبتدعين المحروقة

٢٩١٤٥٠ تائبون بعد التعذيب

ان الذين يطالعون تاريخ اسبانيا مطالعة خالية من الغرض والتحزب ينبغي ان يتتبعوهُ مع لهيب الأتون النارية التي اضرمها التفتيش لان نورها يريهم ما رزئت بهِ تلك الامة الباسلة الممتازة بالصفات الكريمة ومحبة الاستقلال من الكآبة وضيق الصدر وضعف العزائم . اما معارفها وادابها فانحطت تحت سيادتهِ انحطاطاً مبيناً واعترى شمس حريتها الكسوف لاجرم ان ريح السموم الشرقية اللافحة الهابة من القفار ليست الاَّ دون ما لتاثير الترفض الديني من التدمير والخراب فلا غروَ والحالة هذه ما نراه الان في اسبانيا من الانحطاط والتاخر والثورات وما نعاينهُ بها من الغباوة والمنازعات الداخلية وسوء التدبير ولا سيما ابتعادها عن روح ديانة المسيح الحقيقية وتوغلها في التعصب والجهالة في زمان انتشرت بهِ المعارف انتشاراً تحيطها انوارهُ من سائر الارجاء والجهات دون ان تتمكن من الامتداد اليها لما يحول بينها من العبودية الباباوية وظلمة الخرافات الكثيفة كيف لا وهي غاصة من الاكليروس والرهبان المعاة بصائرهم من تلك الاضاليل والخزعبلات المنكرة والمتهافتين على المجد الفارغ والسيادة العالمية والبهرجة والرونق الخارجيين والزارعي الفتن والدسائس للوصول الى غاياتهم الشريرة ولو كلفهم ذلك تضحية الوف وعشرات الالوف من الانفس البشرية المشتراة بدم ابن العلي . فهذه هي بعض نتائج ذلك النظام التفتيشي الخبيث المبني على التدمير والابادة ومن الغريب انها ابت اولاً من ادخالهِ متفهقرةً ومشمئزة من اجراآتهِ الفظيعة ولكنها حسبتهُ اخيراً فخرها وشرفها فما ذلك الا من الجهالة العمياء والترفض القبيح

ان سموم هذه الطغمة المدعوة بالمقدسة قد سرت من اسبانيا الى

املاكها في اميركا الجنوبية فاقام هذا الديوان جلستهُ الاولى في مدينة ليما متفاخرًا ببطشهِ واغتباطهِ مع مجلس بلادهِ الاصلية فاجرى بها من الفتك والاعمال البربرية ما يضيق هذا المختصر عن تعدادهِ . اننا نشاهد حتى في هذا العصر اثار اجراآتهِ المهولة في بعض اللبانزيين المخلعي المفاصل المشوهي الاعضاء قال تكوسود انني صادفت هناك احد الاسبانيول ملتوي الاعضا مخلع المفاصل سيئ التركيب فسالتهُ عن علة ذلك فاجاب انهُ سقط مرةً ما على الةٍ اورثتهُ ما بهِ من العاهة والبلية . غير انهُ قبل وفاتهِ ببضعة ايام سارَّني قائلاً ان اسباب ذلك انما هو ديوان الاعتقاد لانهُ اتهم امامهُ بذنب لم يكن جانيهُ فاستحضرهُ اذكان مناهزًا السنة الرابعة والعشرين من حياتهِ وارغمهُ بالعذابات الاليمة على الاقرار بما لم يكن مذنبًا بهِ قال الراوي ايضًا انني لا اتذكر اعضاءهُ الملتوية والمخلعة ولا اتصور ما كابدهُ ذلك المنكود الحظ من الالم الشديد الاَّ وارتجف شفقةً واشمئزازًا

ان قوة التفتيش رزئت حينًا ما بصدمة فجائية كادت تدك اركانهُ وهي ان معلم اعتراف نائب الملك في تلك البلاد وشى عليهِ الى ذلك الديوان بالبدعة فطلبوهُ للمثول امامهُ لان التفتيش لم يكن ليتاخر عن ابداء سيادتهِ حتى على اسمى العظماء بل دابهُ الشوق الشديد لاظهار قوة سلطتهِ واستبدادهِ في الرياسة فاطاع الموما اليه وانطلق داخلاً قاعة القضاء ثم اخرج ساعتهُ قائلاً ايها الاسياد ها انني مستعد للمذاكرة عن هذه الدعوى المقامة عليَّ وفحصها انما الى ساعة واحدة فقط فان لم انصرف عائدًا في الوقت المذكور تهجم جنودي وقوادي وتهدم هذا المكان وتدكهُ الى الارض لانني اوعزت لهم بذلك . واذا بفرقة من المشاة خاصة بحراسة جسم المشار اليه يتقدمها مدفعان ظهرت تجاه القصر وانتظمت في مراكزها المعينة

فاختشى المفتشون من هذه المداهمة والاحتياط اللذين لم يكونوا يترصدونهما واخذوا يتناجون مناجاةً قصيرة ثم نهضوا وهنأوهُ بملاطفة تصنعية على براءتهِ وشيعوهُ بالرفق واللين الى خارج الديوان

ان سطوة التفتيش المكبلة العقل الانساني بسلاسل العبودية في بلاد اسبانيا الاصلية امتدت بسائر اساليبها وفروعها الى اميركا الجنوبية الاصلية قال احد علماء الفرنساويين كاني بالطبيعة في تلك البلاد تدعو المرء بلسان حال العزلة والانفراد لجولان في ميادين الافكار الفسيحة والتخطر في بحوحة الممالك السامية اما الانسان فجهد مندهشاً لان يداً غير منظورة شلت ذراعيهِ عن الحركة . فتوالت الايام والسنون الى ان انقضى ثلاثة قرون ولم يشهد ذلك الانسان الموهوم الاسكوناً يحاكي سكون القبور وجموداً دونهُ جمود سكانها لاجرم ان روح الحياة لم تهب على افكار البشر في تلك الاحراش والغابات العذرا الفتية المتوجة باكليل الجمال البديع امنسيات الصباح الرقيقة المعطرة بشذاها تلك الارجاء والضواحي فقد نسمت على هامة هذا الشبح (يريد بهِ الانسان الموهوم) لكنها لم تحرك بهِ داعي الانتعاش والنشاط فكاني بهِ يهتف سائلاً ما هو المراد باترى بهذه البلاد الصائرة مهد الممالك تكاد تحاكي رونق بزنطية وبهاءها وهي المكسيك وريو جنيرو وبونيوس ايرس وليما فيعاين تلك الضواحي والبقاع البهية الخالية من شوائب العيوب تتجلى امامهُ بحلى المحاسن انما لا يدرك ما لذلك من الخواص والمنافع . ثم يجلس كئيباً منذهلاً على شواطي الانهر الكبرى تلك البلدان التي ليس لها من التواريخ الماضية ما ترتع بهِ افكارهُ العهدة المختص بسكان كثيرين نازحين ومهاجرين عن اوطانهم الى طقوس صلواتهِ ادنى شيء من مخارج النطق او النظام او تواليفهِ بجمع تراث تنشر على تلك الامم ظلاماً قاتماً بسطهُ ثم تهب عليها من جهة فرانسا واميركا الشمالية نسمة تستفزها ب صادر عن رغبة وقادة تابى الانطفاء لاغتنام الحرية الثمينة نتجة من هاتين القوتين المتعاكستين المتضادتين ليست الا ب هولاء الشعوب من عواصف الانزعاج والياس فيستنتجون ان سياستهم نفسها انما هي رسم تلك الديانة المستبدة بالسلطة

العنيفة فتتحرك بهم بواعث الرغبة لطرح هذا النير عن اعناقهم والمبادرة الى قلب حكومتهم واقامة نظامات جديدة فنشاهد اذ ذاك قيام جمهوريات (ان هذا القول يصدق على بلاد الكاتب نفسها) لم تكن نتيجتها الا تشديد الربط والسلاسل وانتشار الاراء الكفرية واختلال المبادي الدينية فما ذلك الا قصاصاً جديداً وعجيباً. ان اميركا الجنوبية واقعة تحت انبيق عظيم يقطر عليها الموت والافات اما الاصول فغير مظنورة لانها صادرة من مملكة اخرى.

الفصل الخامس

التفتيش في البورتوكال وغوا

انهُ لو استمرت البورتوكال محافظةً على رقة الجانب والتساهل القائمة بهِ في اثناء حكومتي فردينانند وايزابلا بتقديمها ملجأ لمهاجريي اليهود المضطهدين لكانت مستثناة استثناء جليلاً من باقي الممالك الكاثوليكية كلها الا انهُ من سوء الحظ لم يكن الامر كذلك. لان الملك يوحنا الثالث اذ جزع من نمو حرية الضمير الاخذة وقتئذٍ في سبيل الاصلاح صمم على ردع قوتها في بلادهِ فطلب من البابا اكليمنضس السابع ارسال مفتش عام ليقوم بتاسيس ذلك الديوان في بلادهِ على اننا لانظن ان ذلك كان افتتاح الاجراآت الصارمة المعارضة امتداد الحق الانجيلي في تلك البلاد اما كيفية ظهور الاضطهاد وانتشارهِ في تلك الديار فلم تزل في حيز الخفا

ان الديوان التفتيشي الاول انعقد في مدينتي ايڤورا وليسبون ثم بعد قليل في مدينة كوامبرا هذا وان انساناً مفعماً من الترفض والغيرة العمياء

يسمى كساڤيير كتب من الهند الى الملك مقررًا امتداد الشرور اليهودية وازديادها شيئًا فشيئًا في جهات الهند الشرقية الخاضعة الى البورتوكال والتمس منهُ بحرارة المبادرة لتاسيس تلك الطغمة في تلك البلاد لشفاء ذلك المرض العضال وحسمهِ . فمن ثمَّ نصب مفتش البورتوكال العام الكاردينال هنري بحسب الامر الملكي ديوان الاعتقاد في مدينة غوا عاصمة الهند البورتوكالية

اما الملك فنكث بوعدهِ نكثًا مبنيًا على الاستخفاف والازدراء لانهُ كان قد عاهد يهود البورتوكال سنة ١٥٢١ القابلين بالمسيحية بعدم اقامة التفتيش في تلك البلاد حتى انقضاء عشرين عامًا مكررًا بذلك عهدًا سابقًا معقودًا بينهم وبين الملك مانوئيل عن هذا الموضوع نفسهِ واعدًا ايضًا بعدم قبول الوشاية عليهم بالبدعة او الارتداد من شهود سرية . فلما تاسس ذلك الديوان جاهروا بمقاومة شديدة حتى ان البابا بولس الثالث خليفة اكليمنضس لم يمنحهم فقط صفحًا عن الماضي بل اعفاهم من قصاصات تلك الوشايات الحديثة ومما عساهُ ان ينجم عنها من العقوبات المرة الاَّ ان الملك قرر بارتداد البعض منهم الى اليهودية وقبول غيرهم بتعاليم الاصلاح فتاسس التفتيش ثانيةً على اسلوب ليس بشديد الصرامة اما رئيسهُ الاول فكان اسقف كوتا المسمى دييغو داسيلفا

ممن اشتهر بالقساوة والفتك بين روساء المجالس التفتيشية الكردينال تابيرا المفتش السادس لانهُ قام باجراء وظيفتهِ قيامًا مبنيًا على اشد الصرامة والبطش قال لورانت ان عدد الشهداء المحرقة في زمان رياستهِ وهي ٧ سنوات والمكابدة العذاب فيبلغ ٧٧٢٠ منها ٨٤٠ احرقوهم في الحياة و٤٢٠ احرقوا صورهم و٥٤٦٠ اذاقوهم قصاصات وحدودًا مختلفة وقال ايضًا انني اعتقد يقينًا ان العدد يزيد عما ذكر كثيرًا لكنني اذ اليت على نفسي ان لا احيد عما تدربت عليهِ من الامانة وعدم التغرض فلم اقرر الاَّ عددًا منخفضًا جدًا وان ارتاى القاري امكانية التساهل الى الخصم وتلطيف

هذا التعديل فبئس الراي والنتيجة لاجرم ان صرامة ذلك الديوان وظلمهُ اشتدا اشتدادًا حمل نفس البابا على ان يحث المفتشين على تخفيض تلك الاجراآت والاغضاء فلم ينجح بذلك الاقليلاً

ان ممن تدون اسمهُ في جدول شهداء التفتيش عند اول تاسيسهِ رجل انكليزي يسمى يوحنا كاردينير سقط بين مخالبهِ في ظروف غريبة اما الموما اليهِ فكان تاجرًا متوطنًا في مدينة ليسبون بروتستانتي المذهب لم يالف الحضور في الكنيسة الباباوية لعدم قولهِ واعتقادهِ بتعاليمها . فعند حدوث احتفال زواج ولي عهد البورتوكال على ابنة ملك اسبانيا خالف هذه العادة الصوابية وانطلق الى الكنيسة فهاجت بهِ دواعي الاشمئزاز والنفور مما عاينهُ من الخرافات والطقوس الكاذبة وصمم تصميمًا ناتجًا عن الطيش وعدم التبصر على المبادرة بنفسهِ الى عمل الاصلاح ولو كلفهُ ذلك تضحية حياتهِ . ومن ثمَّ انهى اشغالهُ التجرية وتهيا لان يتجند متطوعًا للشهادة والحماماة عن الحق ثم اتجه الى الكنيسة الكبرى واختطف الايقونة التي كان يعبدها الشعب ثم قذف بها الى الارض دائسًا عليها فاعترى الجمهور كل الانذهال والحيرة اما الاكليروس ومتدينو الشعب فلم يكونوا ليصمتوا عن تلك الاساءة الفظيعة حسب زعمهم وعدم الانتقام والبطش بمرتكبها . وقد كان الملك حاضرًا في ذلك المحفل فسال كيف تجاسر على هذا العمل وهل لهُ من شريك اغواهُ على هذا الامر فاجاب الموما اليه انهُ لم يكن لهُ من مساهم وان المحرك لهُ على ذلك انما هو ارشاد ضميرهِ فقط فالقوهُ في السجن ثم صدر الامر حالاً بوجوب حلول نفس القصاص على سائر ابناء بلادهِ المقيمين في تلك المدينة وحينئذٍ اخذ التفتيش بان يصوب نحوهُ اسنة العذاب المعهودة فوضعوا في حلقومهِ كرةً وطفقوا يدلونها ويجذبونها على التوالي ثم قطعوا احدى يديه اما هو فلم ينثنِ عن اقرارهِ ولم تستطع تلك العذابات ان ترغمهُ على جحود ما كان يحسبهُ من الواجبات المسيحية فحكموا عليهِ بالموت . وحينئذٍ نصبوا وتدًا عاليًا واوثقوهُ بهِ فوق اللهيب ليشووهُ على

كيفية بطيئة جدًّا فكانوا ينزلونهُ الى النار ثم يرفعونهُ ليعاينهُ المتفرجون ذائبًا باشد الالم فلم تحمد بسالتهُ عما كانت عليهِ واما القسوس فاخذوا يحثونهُ على جحود بدعتهِ والصلاة الى العذراء اذ كان موشكًا ان يسلم الروح فاجابهم لما يكف المسيح عن القيام بوظيفة الشفاعة فحينئذٍ اصلي الى مريم العذراء واطلب شفاعتها . ثم اخذ يتلو في اللغة الدارجة المزمور القائل اقضِ لي يا الله وحامِ عن دعواي من امة ظالمة (ان هذه العبارة كانت عنوان التفتيش) فبادروا اذ ذاك لرفع جسمهِ وانزالهِ باكثر سرعة الى ان انفصم الحبل فجاة واتم استشهادهُ في اللهيب . وقد اساءوا معاملة كل رعايا الانكليز في ليسبون من جرا هذه الحادثة ولاسيما اذ تبوا وقتئذٍ ادورد السادس عرش انكلترا وكان الملك البروتستانتي الحقيقي الاول القابض على زمام تلك المملكة

ان كانت رومية قد حازت بعض الشهرة نظرًا لانجاز المواعيد وايفائها لم يكن الامر كذلك من حيث تعلق المبتدعين لان من الادلة الكثيرة على نكثها العهود والمواثيق ما نقراه في هذه القصة الاتي بيانها المقتبسة من تاريخ التفتيش البورتوكالي وهي ان اليهود كانوا قد جمعوا مبلغًا ليس باقل من ٢٥٠٠٠٠ الف ليره اعانةً لسبستيانوس الملك على حملتهِ على العرب في افريقية ولذلك وعدهم البابا غريغوريوس الثالث خلافًا لنصيحة الملك فيلبس الثاني بالاعفاء من حدود التفتيش وغراماتهِ حتى انقضاء عشر سنوات فلم يمر اكثر من ثلاثة شهور من صدور ذلك المنشور حتى عادت تلك الغزوة بالويل والثبور فتاكد البابا من مصادر يركن اليها ان ذلك الوعد انما كان مبنيًا على عدم التبصر وان المحافظة عليهِ من شانها تكدير سلامة الكنيسة والاخلال بسيادتها

ثم في سنة ١٦٠٤ اصدر البابا اكليمنضس الثامن منشورًا يعديهِ بتخفيض القصاص عن هولاء اليهود المنكودي الحظ الاَّ ان ذلك انما كان من المواعيد العرقوبية فولية نظام فاقت صرامتهُ على ما تقدم . وفي سنة ١٦٨٣

حدث احتفال اعتقاد قضي بهِ على اثنين وثمانين شخصاً بقصاصات شديدة احرقوا بهِ ثلاثة انفار وخنقوا واحداً واما اغلب ذنوبهم فكانت تهمة اليهودية والسحر ولم ينقضِ قليل من الزمان حتى وفد على البابا نواب من قبل تلك الطائفة يتوسلون اليهِ بمعاملة اولئك اليهود المتهمين بالارتداد بعد القول بالمسيحية والمطروحين في السجون التفتيشية معاملة مبنية على الشفقة والرحمة لان بعضهم كان مدفوناً هناك منذ سبع سنين وغيرهم منذ اربع عشرة سنة

وفي سنة ١٦٧٢ فقد بضع برشامات من الكنائس فانجهت الشبهة على العرب واليهود القاطنين في ليسبون وحينئذٍ اخذت جيوش العذاب ان تشن الغارة عليهم وتفتك بهم فتك الذئاب فتحرك البعض من الاشراف والاكابر والتمسوا من الملك الكف عن هذه الاعمال البربرية وابداء الرحمة على المذكورين فاحالهم الى بلاد رومية . اما مصدر تلك الجناية فلم يكن احد من هاتين الطائفتين بل شخص رومانى كاثوليكي عرفهُ ديوان التفتيش سريعاً ومع ذلك لم يطلقوا اولئك المظلومين كما كنا نترصد حصولهُ في ظروف كهذه لانهُ حدث نزاع بين بلاط رومية والتفتيش لجهة اصلاح ديوان الاعتقاد تحزب بهِ الملك الى الحبر الروماني وسبب استمرار المذكورين في الاسر غير انهُ لم يلبث حتى قضى ذلك الملك نحبهُ واما الدومينيكيون فلم يستنكفوا من محاربة الاموات وتبريد غليل غيظهم وانتقامهم من الرمم البالية كما هو دابهم فقادوا ارملتهُ وخليفتهُ على كرسي الملك دونا لويزا الى ضريحهِ لتشاهد ما حكمت بهِ الكنيسة على جثة زوجها المتوفى من القصاص والاهانة ولتعاين هذا العمل الوحشي تجاه عينيها . وقد اتضح ان شهداء التفتيش في ليسبون كابدوا من الالام والعذابات البربرية عند ساعة الحتف ما يفوق الادراك والاحتمال قال الدكتور جيدس انهُ حالما دفعوا الاسرى الى ايدي الولاة كبلوهم بالقيود امام اعين التفتيش ثم ساقوهم الى حبس العامة واحضروهم بعد ساعة او ساعتين امام القاضي العظيم فسمع انهُ كان يجهل حقيقة جناياتهم والادلة المقامة ضدهم

طفق يسالهم عن الديانة العازمين ان يموتوا عليها فان اجابوا على ايمان كنيسة رومية يقضي عليهم بان يساقوا الى النطع ثم يخنقوا قبل الاحراق واما ان قالوا على الديانة البروتستانتية او على ديانة اخرى مناقضة للرومانية فيحكم عليهم بالانقياد الى الاتون حيث يبادرون لاحراقهم بالحياة

انهُ يوجد عند مكان النطع في ليسبون اوتاد بحسب عدد الاسرى المعدة للاحراق حولها كثير من الحطب اليابس ارتفاعها غالبًا نحو خمس اذرع لها عند اعلاها لوح صغير لجلوس الاسير فالجاحدون بدعتهم والعائدون الى الباباوية يخنقونهم اولاً ثم يحرقونهم واما الباقون مصرين فيصعدونهم بين راهبين يسوعيين متوجين حراستهم ذلك النهار ولما يحاذون اللوح المذكور يلتفتون الى المحفل فياخذ اليسوعيان بتحريضهم على التوبة والمصالحة مع الكنيسة فان ابوا ينزلان ثم يصعد الجلاد لايثاق اجسامهم بالاوتاد ثم يغادرهم على تلك الكيفية ويصعد اليسوعيان ايضاً لتجديد حثهم على الرجوع فان رفضوا ينصرفان عنهم قائلين انها يتركانهم الى ابليس الواقف عند ابطهم لقبض ارواحهم والانطلاق بها اذ تفارق الاجساد الى نار الجحيم فيرتفع ضجيج عظيم ثم يهتفون بعد ابتعاد اليسوعيين عن السلم اعملوا لحي الكلب وذلك يقوم بالقاء عيدان ملتهبة مربوطة بعصي طويلة على وجوه الاسرى المستشهدين فيواظبون على هذا العمل الوحشي الى ان تحترق وجوههم وتتحول الى هيئة فحمية هذا وهم اخذون في المرح والمزح وهتاف السرور كانهم في وليمة مبهجة لاجرم ان المآدب المنطوية على المجون والخلاعة ليست الاَّ دون ما اتصفت بهِ تلك الاحتفالات المسماة بالمقدسة من الرونق والافراح ثم بعد قيامهم باحراق وجوه المبتدعين على هذه الكيفية بكل استهزاء وسخرية يضرمون الحطب الموضوع عند اسفل الوتد واما الشهداء فنظرًا لارتفاعهم عن النار كثيرًا لا يتمكن اللهيب من ان يمسهم الا نادرًا وان هبت الرياح يصل احيانًا الى اعالي ركبهم وان كان الطقس بحالة السكون لا يمر نصف ساعة من ايقاد النار حتى ينقضي

اجل الشهداء واما ان هبت الريح في ذلك الحين فلا يتجرعون كأس الحمام الا بعد انقضاء ساعة او ساعتين فبناء على ذلك يكونون قد اتموا استشهادهم شيًا على النار وليس حرقًا . ان من شان هذه المراسيم الدموية ان تشخص اهوال الجحيم وعذاباته تشخيصًا دونهُ مشاهد الوثنيين والبرابرة لانك لا تسمع بها الاَّ اصوات المتعذبين وانينهم تضج قائلة ألا من رحمة ألا من حنو لاجل محبة الله انما لا مجيب ولا راحم فالذكور والاناث في ذلك المحفل من كل سن ورتبة يعاينون ذلك بفرح وابتهاج يفوق احتفالات الولائم والاعراس

ان رسالة مستر ويلكوكس الصائر بعد ذلك اسقف روشستر الى الدكتور جيلبرت بورنت اسقف ساليسبوري سنة ١٧٠٦ تويد الرواية المار ذكرها قال الكاتب واصفًا احتفال اعتقاد شاهدهُ في ليسبون اذ كان وقتئذٍ قسيسًا على الانكليز القاطنين بتلك البلاد انهُ عاين في احدى الاحتفالات القضاء على خمسة اشخاص احرقوا منهم اثنين بالحجارة من جملتهم امراة ظلت حية في اللهيب نصف ساعة ورجل استمر ساعة ونيف وقد كان الملك واخوتهُ جالسين في شباك قريب يتفرجون فخاطبهم ذلك المنكود الحظ ملتمسًا بحرارة لا مزيد عليها ان ينعموا عليهِ بقليل من الحطب للتمكن من سرعة الاحتراق فلم يفز بهذه المنة

ومن الامور الجديرة بالالتفات قصة امراة تسمى اليصابات فاسكونيل شهد بها قنصل الانكليز في البورتوكال والقسيس المار ذكرهُ وهي ان سيدة بروتستانتية سافرت الى مادیرا ثم تزوجت بطبيب من تلك الجزيرة ففي اثناء ذلك مرضت واذا بالقسوس قد اقبلوا يعودونها مناولين اياها ما يسمونهُ بالقربان المقدس وهي على غير الانتباه لسقوطها في بحران اعدمها الاحساس فلما عادت الى الصحة طلبوا منها القيام بالفروض البابوية والاقرار بعقائدها فابت وحينئذٍ بادروا لالقاء القبض عليها وارسالها اسيرة الى تفتيش ليسبون حيث امست مطروحة في سجن حرج ستة اشهر قائلين لها ان رضوخها الى مناولة سر كنيسة رومية انما هو علامة على قولها بتلك

الديانة ووجوب استمرار محافظتها على عقائدها فان اقرت بذلك سلمت والاَّ فالاحراق. فابت الاَّ تقرير الواقع فاستشاطوا غضباً واخذوا يعذبونها بالكي بحديد محمى كيًّا مولماً قاسياً ثم اعادوها الى السجن دون ان يضمدوا جراحاتها ولم ينقضِ شهر من الزمان الاَّ واتوا بها ثانيةً وطفقوا يجلدونها جلدًا عنيفاً فلم يكن ذلك ليوهن عزمها او يزعزع ما رسخ في افكارها من المبادي فاندهل المفتشون قائلين ان الباعث على قصاصها ومعاملتها على هذه الكيفية انما هو رغبتهم بخلاصها من عذاب الجحيم ورحمةً منهم على نفسها. ولكن ان فضلت الاحراق والهلاك على القول بالديانة الرومانية فيجبرون عليها امتحانًا اخر قبل التقدم الى القيام بذلك وحينئذٍ جردوا رجلها اليسرى من الحذاء والبسوها حذاء حديديًا محمى جدًّا ثم شدوهُ شدًّا اوصل الحرارة والالم الى العظام ولم ينزعوهُ عنها حتى غابت عن الصواب وحكم الطبيب بحصول حياتها في الخطر ثم اعادوها الى السجن وقد استحضروها ايضاً وجلدوها جلدًا عنيفاً متهددين اياها بعذابات جديدة الى ان خارت عزائمها وانتهكت من شدة الالم فسلمت اخيرًا بان تدون اسمها على قرطاس دفعوهُ لها فامضت عليهِ عن غير معرفة بما يتضمنهُ ثم ارغموها على نادية قسم الكتمان وضبطوا كل اموالها البالغة خمس مئة ليرة انكليزية وطردوها الى الاسواق لتحصل معيشتها من التسول او تموت جوعاً فهذا هو ملخص التقرير المقدم عن هذه المراة المنكودة الحظ واما بقية تاريخها فمصموت عنهُ

ان قصر التفتيش في ليسبون اندك في احدى الثورات البورتوكالية التي طالما زعزعت اركان تلك المملكة فانتهز الشعب الفرصة للتفرج على هذا المكان الغريب اما نحن فنظن بان القاري ليس باقل شوقاً منهُ للوقوف على وصف رسوم ابنية ذلك الديوان ودائرتهِ فنقول ان في ٨ ت٢ سنة ١٨٢٦ انفتح بلاط التفتيش الى العموم واذا بجماهير غفيرة ازدحمت ازدحاماً صير الولوج اليهِ في الاربعة ايام الاولى شاقاً بل مخطرًا. اما

الدار فمسجة جداً مبنية على شكل مربع مستطيل يتوسطها جنينة ويعلوها ثلاث طبقات تحتوي على اروقة وماشٍ مقبية واغوار وكهوف مساحتها من ستة الى تسعة اقدام ليس للسفلى منها او لما هو على الطبقة الاولى من المنافذ ما يجلب لها شيئاً من النور والهواء الاَّ عند فتح الباب واما عشوش الطبقة الثانية فلها كوة تحاكي المدخنة يرى منها قليل من الجو والفضاء مختصة بالمسجونين الاقل جناية المظنون امكانية اطلاقهم . واما جدران كل السجون فمثقوبة ثقباً قطرهُ نحو اصبع يتصل بممشى مغطًّى ممتد على جميع الصفوف يمكن اعوان التفتيش من مراقبة تصرفات الاسرى واستماع احاديثهم دون ان يستطيع المذكورون على معاينتهم وقد شوهد على هذه الماشي مقاعد موضوعة على كيفية من شانها ان تمكن الجاسوس من ملاحظة ما يحدث في سجنين بمجرد امالة بصرهِ من اليمين الى الشمال ليتفرس بما عساه ان يشاهدهُ من الثقبين الجالس بينهما وقد عثروا في كثير من تلك الاغوار على جماجم وعظام انسانية وشاهدوا على جدرانها كتابات محفورة دالة على اسماء البعض ممن القتهُ التعاسة في تلك الكهوف المربعة مصحوبة بخطوط وفروض تشير الى عدد ايام اسرهم من جملتها امضاء شهيد مع تاريخ ١٨٠٩ اما ابواب بعض الاقبية فكانت مسدودة سدًّا محكماً فعالج الشعب فتحها ثم دخل اليها فوجد كثيرًا من الرمم والعظام البشرية والاثار المكدرة منها ملبوسات بالية ومنطقة راهب . وقد كان البعض من تلك الكوى المخروطية مسدودًا اما علة ذلك فانما هي قتل الاسرى ضمنها لانهم كانوا يرغمون الشهيد المنكود الحظ على تسلق تلك النافذة ثم يسدون قاعدتها ويلقون عليهِ كلساً مضطرماً يلهب جسدهُ ويحولهُ الى الرماد وقد القوا في كثير من هذه القبور فرشاً بعضها رثيثة وبعضها جديدة الامر الذي ينبي عن حقيقة استمرار التفتيش حتى الى هذا العصر وانهُ ليس بشبح او بخيال وهمي وان حاول الخصم مناقضة الحق الصريح وتكذيبهُ . اما بقعة ذلك القصر التفتيشي فكانت قبل سنة ١٧٧٥ من الاحياء الزاهرة بالمنازل

العامرة المختصة بسكن الاهلين الامر الدال على ان اولئك الشهداء المنكودي الحظ الماسورين في ذلك المكان قد اتموا استشهادهم في مدة تنقص عن الستين سنة وقد اكتشفوا على اقبية اخرى تحت الارض خلا تلك ظلت غير مفتوحة

ان مرسلي الباباويين على شطوط ما لابار في الهند الشرقية لم يالوا جهدًا عن اجتذاب سكانها الى الديانة الرومانية تارةً بالمعهودية الاغتصابية وتارةً بالتمليقات والهدايا والمواعيد فانحاز اليهم جمهور غفير من آل تلك البلاد فصار حينئذٍ تاسيس ديوان التمحص تاسيسًا مبنيًا على مباديه الاصلية وروحه الخبيثة المصطلح عليها في الممالك الباباوية للتمحص من بدع النسطوريين واليهود المدعين بالمسيحية المجاورين لتلك الاقطار منفذًا اجراآته المهولة بواسطة دسائس الاكليروس والجواسيس السرية اوراسًا بلا واسطة. اما معرفتنا عن هذا الديوان فانما تقوم برواية اشاعها طبيب فرنساوي اسمهُ ديللون اشتبك في فخاخهِ سنة ١٧٦٢ وقد كان الموما اليهِ قاطنًا في دامون مدينة تحت حكم البورتوكال في الهند الشرقية فاتهموهُ بالتكلم عن التفتيش والديانة الرومانية كلامًا مبنيًا على الاستخفاف والازدراء ثم القوهُ في السجن وبعد حين اتوا بهِ الى حضرة الديوان فلم ينالك من الجزع والاختشاء من عواقب ما عثر بهِ لسانهُ من الهفوات فسقط على اقدام المفتش العام ملتمسًا ان ياذن لهُ بان يقدم الشكاية على نفسهِ ويقر بما قد زل بهِ فاجابوهُ ان لاحاجة للسرعة وانهُ لما يحصل سيادتهُ على فرصة فيستدعيهِ فاستمر في السجن من اب سنة ١٦٧٢ الى كانون الثاني من السنة التابعة. اما مساحة سجنهِ فلم تزد عن عشر اقدام مربعة ولم يكن مسموحًا لهُ بالحصول على شي من الكتب اومعاشرة احد من البشر ثم اتوا بهِ عند انقضاء المدة المذكورة وراسهُ مكشوف وقدماهُ حافيتان للمثول امام المفتش فقرر حينئذٍ عن احاديث شتى جرت بينهُ وبين اصحابهِ لكنهُ اذ لم يتذكر وقتئذٍ بانهُ قال شيئًا مضادًا للتفتيش لم يقرر عن هذا الموضوع فسالوهُ

قائلين هل من تقرير اخر يعترف بهِ عدا ذلك فاجاب كلاً ثم اقسموا عليهِ ان لا يكتم شيئاً من الواقع فظل راسخاً على اقرارهِ . ثم استدعوهُ في ١٥ شباط وطفقوا يحاكمونهُ محاكمةً مبنية على التشديد والاقسام كالاولى سائلين اياهُ اسئلةً جمة عن معهوديتهِ واصحابهِ الخ ثم امروهُ بتلاوة دستور الايمان والسلام المريمي والوصايا ثم ناشدوهُ باحشاء رحمة الرب يسوع ان لا يخفي شيئاً بل يبادر للاقرار فبعد انصرافهِ من هناك فطن بكليات كان قد تفوه بها في دامون عن ديوان الاعتقاد فالتمس اقامة جلسة اخرى لم يفز بها حتى بعد مرور شهر كامل فقرر حينئذٍ عما خطر في بالهِ من الاحاديث من هذا القبيل راجياً سرعة اطلاقهِ وانتهاء المحاكمة فاجابوهُ متهكمين ان ما يترصدهُ من الانفلات من ايديهم انما هو بعيد جداً هما اذ خروهُ لهُ من المخ ولم يدونوا اذ ذاك اقرارهُ خطاً . فاعترى المومأ اليه كل الياس والاضطراب وحاول ان يقتل نفسهُ فاوثقوا يديهِ بقيود حديدية ايثاقاً شديداً انزل بهِ من الالام ما حملهُ على محاولة صدم دماغهِ على الارض الحجرية للتخلص من تلك النوائب الفائقة الاحتمال الاَّ ان مراقبة حارسيهِ صدتهُ عن اتمام ذلك ثم انوا بهِ بعد سجن ١٨ شهراً الى محاكمة اخرى حيث اقاموا عليهِ الشكوى اقامة قانونية مستندين على اقرارهِ بالتكلم عن طغمة التفتيش والمجبر الروماني كلاماً ينطوي على عدم الوقار ثم اعلنوا لهُ صدور الحكم عليهِ بضبط اموالهِ جميعها الى التاج الملكي والاحراق بالحياة اما هو فاقر بصحة التهمة الاولى واما الثانية فانكرها فاتبعوا ذلك بثلاث اواربع جلسات لم ينثنِ بها ذاك الاسير عن اقرارهِ الاول وفي هذه الاثناء كان يسمع صراخ الاسرى المتعذبين وانينهم وتختلج فوادهُ ارتياعاً واشفاقاً من من حلول نفس هذه الدواهي عليهِ ثم احضروهُ في ختام الامر في احتفال اعتقاد عاين بهِ احراق شخصين ممن ظنوا بهما البدعة وارسلوهُ الى ليسبون حيث كابد عذابا اليماً مع كثير من اسارى التفتيش وبعد مجاهدات بطول ذكرها منوا عليهِ بالاطلاق

والان نذيل هذا الفصل بملخص مقتطف من رسالة اذاعها الدوكتور بيوكانن نائب رئيس مدرسة فورت ويليام الكلية حدثت بعد ثلاثين سنة من تاريخ القصة المار ذكرها وقد ابدى الموما اليه انذهالاً كليًّا من بقاء ذلك النظام التفتيشي حتى ذاك الوقت الى سنة ١٨٠٨ تحت حكومة الامم الاوروبية المسيحية المتمدنة لا بل تحت الحكومة البريطانية المبنية على الحرية والعدالة ومن ان رعاياها الانكليز انفسهم يسون تحت مسئولية سيادتهِ واحكامهِ المريعة فان صح هذا القول يكون من الامور العجيبة الجديرة بالالتفات ودقة النظر قال المشار اليهِ انني اوضحت الى الكولونيل ادمس والوالي الانكليزي عزمي على فحص احوال التفتيش في غوا فاخبراني ان دون الوصول الى مرامي خرط القتاد وان ممارسة نظاماتهِ انما تقوم بالكتمان والتستر وان اعيان البورتوكاليين العوام انفسهم يجهلون اجراآتهِ وانني ولو تقربت من الاكليروس وتحببت اليهم فلا انال المطلوب لان الغيرة الدينية وخشية العواقب تصدانهم عن ايضاح الحقيقة واجابة اسئلتي عن هذا الموضوع. لكنهُ لم يثنِ عزمهُ بل صمم على زيارة غوا بنفسهِ فعرفهُ احد خلانهِ بثاني رئيس ديوان الاعتقاد فدعاهُ المذكور للاقامة عندهُ قال الدكتور الموما اليه انني بينما كنت في حجرتي واذا بالمفتش مضيفي داخلاً اليَّ صباحًا في ثاني يوم وصولي متردياً ببدلة سوداء خلافاً للاثواب البيضاء الاعتيادية المختصة بطغمتهِ قائلاً انهُ منطلق الى ديوان الاعتقاد لاتمام واجبات وظيفتهِ فاجبت ايها الاب الموقر اظن ان وظيفتكم السامية لاتاخذ كثيرًا من وقتكم فقال بلى انني اجلس في الديوان ثلاثة او اربعة ايام في كل اسبوع ثم انصرف. قال الدكتور ايضاً انني هممت منذ بضعة ايام على اعطاء الكتاب المحتوي على قصة ديللون المار ذكرهُ الى المفتش لعلي اتمكن من الوقوف على افكارهِ من هذا القبيل واستمالتهِ الى التسليم بصحة تلك الحوادث المدونة بهِ ومقابلتها مع احوال الفحص الحاضرة مقابلة تامة فزارني في ذات يوم ليلاً حسب العادة ليصرف ساعةً من الزمان فبعد

ان تجاذبنا اطراف الاحاديث اخذت القلم بيدي لادون بعض ملاحظات في دفتري اليومي ثم رفعت وقتئذٍ كتاب ديللون الموضوع امامي على المكتبة ودفعتهُ لهُ كانني اقصد تسليتهُ ريثما افرغ من الكتابة سائلاً اياهُ هل اطلعتم على هذا الكتاب اما القصة المذكورة فكانت باللغة الفرنساوية التي يفهمها جيدًا فاجاب بنطق صريح منخفض اهو مما يتعلق بتفتيش غوا انني لم ارَ ذلك قبلاً ثم طفق يقرا بكل شوق ورغبة ولم يطالع بهِ قليلاً الاَّ وظهرت عليهِ لوائح الاضطراب ثم التفت سريعًا الى وسط الكتاب قالبًا صفحاتهِ ثم الى اخرهِ واخذ يتمعن بما يتضمنهُ من الفصول في الفهرس كانهُ يرغب ان يتاكد مقدار جسامة الشر المحتوي عليهِ واذا بهِ سكن روعهُ وتهيا للمطالعة والاستيعاب بينما كنت لاازال آخذًا في الكتابة ثم قلب الصفحات بخفة فلاحت منهُ التفاتة الى بعض السطور وحينئذٍ هتف قائلاً بخارج ايطاليانية عريضة ميندا كيوم ميندا كيوم اي كذب كذب فطلبت منهُ ان يعلم العبارات التي يظن عدم صحتها كي نتذاكر عنها فيما بعد ثم قلت عندي كتب اخرى عن هذا الموضوع فاجاب متعجبًا هل عندكم كتب اخرى ثم تطلع بعيني الفاحص نحو الكتب الموضوعة على المكتبة واسمر يتلو الى ان ازف وقت الاعتزال الى المراقد وحينئذٍ طلب ان ياخذ الكتاب صحبتهُ فاجبت ايجابًا . وقد المَّ في هذه الليلة حادثة سببت لي الارتياع الكلي وذلك انني استيقظت في نصف الليل على صياح وهتاف عظيم ينبي عن روح وانزعاج شديد فتوهمت عند اول وهلة ان ماموري التفتيش القوا القبض على خدامي النائمين على الممشى المختص بجميع الغرف حيث لم يكن ذلك بعيدًا عن اتباع الدير كي يرفعوهم الى التفتيش فاسرعت راكضًا واذا بغلام دون الخمس عشرة واقفًا على مسافة قصيرة من المذكورين حولهُ بعض القسوس والرهبان الخارجين من مراقدهم على سماع الصوت فقال الغلام انهُ قد راى شبحًا مرعبًا ولم يسكن ما بهِ من اضطراب الجسم والصوت الاَّ وقد انقضى كثير من الزمان ثم في الصباح التالي اعتذر لي المفتش على

المائدة عما المّ بي من القلق في تلك الليلة قائلاً ان ارتياع ذاك الفتى انما كان صادرًا عن خيالات وتصورات وهمية. ثم عدنا بعد مناولة الفطور لما كنا بصددهِ من موضوع التفتيش فسلم المشار اليهِ ان وصف ديللون للسجون والعذابات وكيفية المحاكمة واحتفال الاعتقاد انما كان في محلهِ الاَّ ان الكاتب لم يحكم حكمًا مصيبًا عادلاً على محركات المفتشين وبواعثهم وانهُ قضى بروح الغرض والبغض على روح الكنيسة المقدسة فاجبت ربما ان ما كابدهُ من شدة الالم قد حملهُ على الحكم بذلك فتاق لان يطلع على مقدار انتشار الكتاب المذكور في اوروبا والكمية المتوزعة منهُ فاجبتهُ ان يبكار نشر في كتابهِ المشهور المسمى بالطقوس الدينية ملخصًا منهُ مع رسم صور الات العذاب والاحتراق في احتفال الاعتقاد ثم اضفت قائلاً ان الاعتقاد الشائع الان في اوروبا هو ان تلك الاعمال الفظيعة قد اندرست اثارها وان التفتيش نفسهُ قد اضمحل ونلاشى الا انني من سوء الحظ لم اجد الامر كذلك فشرع وقتئذٍ بخطاب جدّي يوضح بهِ تلطيف صرامة التفتيش وتخفيض اهوالهِ عما كانت عليهِ في الازمنة السابقة. اما الادلة الراهنة التي استند عليها لدحض قساوة اجراآتهِ فلم تكن الاَّ انسانية اعوانهِ ومستخدميهِ وحنوهم فاجبت انني لا ارتاب باطف مامورية الموجودين الان ولكن انى لهم القيام بذلك ونظاماتهُ الغنية صرامتها عن الاسهاب تحمل المفتش على ان ينطق بالقضاء حسب مباديها رغمًا عما يتصف بهِ من الحلم وطيب الاخلاق وان المبتدع العائد الى ضلالتهِ يستوجب الاحراق في اللهيب او الالقاء في السجن الحياة باسرها ثم اردفت كلامي قائلاً ان رمت اقناعي بهذا الموضوع فارني قاعة التفتيش ومخادعهُ السرية فاجاب ان ليس باذون لاحد معاينة ذلك فقلت ربما يمكن اعتبار مرغوبي اعتبارًا خاصًا مستثنى لانهُ يوجد الان نظر واشتباه من جهة روح التفتيش واوصافهِ ولياقة دوامهِ فيما بعد وانني انا نفسي آخذ بتاليف كتاب عن تمدن الهند واود لو تمكنت من ان اذيع تقريرات اخرى عن هذا الموضوع وانهُ لا ينتظر والحالة

هذه ان اضرب صفحاً عن التفتيش مع وقوفي على كثير من اجراآته وانني لا ارغب ان اقرر قضية واحدة خلواً من مصادقته عليها وتسليمه بصحتها ثم قلت ايضاً بانهُ هو نفسهُ قد تكرم بالجولان معي ملياً بهذا الموضوع وانني ارجو ان المحرك لنا على هذه الاحاديث لم يكن الاَّ بواعث ومقاصد حسنة فلما رنت هذ الكلمات على مسامعهِ تغير وجههُ تغيراً واضحاً ولم يعد فيما بعد لما كان عليهِ من الخلوص والرقة ثم قال بعد ارتباك وتردد قليل انهُ سياخذني صحبتهُ في اليوم التابع الى التفتيش اما انا فانذهلت كل الانذهال من هذه المنة الا انني لم اكن عالماً بما كان يجول في افكارهِ . وفي الصباح المذكور انطلق الموما اليه بعد الفطور لينسربل بحلة طغمتهِ ثم عاد على الفور ببدلتهِ التفتيشية قائلاً انما عزم على الذهاب قبل الوقت الاعتيادي بنصف ساعة ليتمكن من ان يريني قصر التفتيش فلمحت ان محياهُ قد زاد تقطيباً عما كان عليهِ وان اتباعهُ تغيروا عن لطافتهم وبشاشتهم الاولى على ان مشهد نصف الليلة الماضية كان لا يزال منطبعاً على لوح ذاكرتي اما القصر فكان يبعد نحو ربع ميل عن الدير فاتجهنا نحوهُ فلما وصلنا الى المكان المقصود واخذنا بالصعود على السلم الخارجي التفت المفتش نحوي قائلاً انهُ يرجو اقتناعي بمنظر اجمالي مختصر مما سوف يقود بي اليه من امكنة التفتيش وانني سارضى بالانصراف حينما يوعز اليَّ بذلك فتيمنت من هذا المقال فالاً حسناً ثم تتبعت دليلي بقلب لا يخلو من بعض الثقة . فاتى بي اولاً الى دار التفتيش الفسيحة فشاهدت عند الباب محفلاً من رجال مترديين بملابس حسنة علمت فيما بعد انهم من اعوان طغمة التفتيش واتباعها فانحنوا امام المفتش الى الارض وتفرسوا بي منذهلين فتوسطنا تلك الدار المختصة باصطفاف الاسرى لاحتفال الاعتقاد وهي نفس الدار التي مشى بها ديللون حافياً بالثوب المصور في الموكب المولف مما ينوف عن المئة وخمسين اسيراً فاجتزت هذه الدار بخطوات متقاصرة متذكراً بمشاهدها المريعة اما المفتش فكان ماشياً بجانبي وكنت غارقاً في بحار الافكار عما اصاب

ذلك الجمهور الغفير من اخوتي بني البشر الذين طالما اجتازوا في هذا المكان من الرزايا والدواهي اذ قضى عليهم ديوان قائم باناس خطاة نظيرهم دافعاً اجسادهم الى النيران وحاكماً على انفسهم بالهلاك فلم اتمالك من ان ابادرهُ قائلاً الا ترغب الكنيسة المقدسة رحمة منها على تلك الانفس في ان تستردها ثانية ثمن عليها بزيادة الامتحان والفحص فلم يجبني بشيء بل اشار الي بان ارافقهُ الى باب كائن على احد اطراف الدار ثم قادني منهُ الى حجرة صغيرة ومنها الى قاعة فسيحة مختصة بالمفتش العام فلما انتهيت من التفرج على ذلك عاد بي الى الدار الكبيرة فاستلمحت منهُ الرغبة بسرعة انصرافي فقلت ايها الاب انني التمس منك ان تاتي الى السجون السفلية لانني ارغب معاينة الاسرى فاجاب كلاً ان هذا لمن المستحيل فاخذت الشكوك تخامرني ان المفتش لم يكن عازماً ان يريني الاَّ قسماً صغيراً من هذا القصر راجياً والحالة هذه اجابة اسئلتي واقناعها على كيفية موجزة اجمالية فالححت عليهِ جدًّا ان يتكرَّم عليَّ باجابة مرغوبي فابى مصرًّا اصرارًا لحظت منهُ على تاذّيهِ وانزعاجهِ من هذه اللجاجة واوضحت لهُ كل الايضاح ان الواسطة الوحيدة للدلالة على براهينهِ عن احوال التفتيش الحاضرة على كيفية عادلة انما تقوم بايقافي على حقيقة السجون والاسرى عياناً وان ما دام الامر كذلك لا اصف الا ما قد شاهدتهُ. فلم يكن من بسمع او يجيب بل كمن يضرب في حديد بارد ولذلك ظل هذا الموضوع عندي في حيز الخفاء ثم اردفت كلامي قائلاً انزل بي قائدًا اياي الى الطبقة السفلية والابنية الداخلية واسمح لي بالمرور في وسط مائتي السجن ذات عشر الاقدام المربعة الموصوفة من اسراكم واكرم عليَّ باحصاء مسجونيكم الموجودين الان والمحادثة معهم لانني اشتهي ان ارى هل بينهم احد من رعايا الدولة البريطانية المكتنفين بظليل حمايتها واود ان اسال مذ متى طرحوا في هذا المكان ومذ متى لم يعاينوا نور النهار وهل يترقبون مشاهدتها مرة اخرى ارلي تخدع العذاب وصف لي طرق القتل وانواعهُ والقصاصات الجارية ضمن

جدران التفتيش عوضاً عما كنتم تجرونهُ من احتفالات الاعتقاد الجهارية فان كنت ايها الاب تابى اجابة التمامي هذا المبني على الحقانية والصواب فلالوم عليَّ من ان اعتقد بانكم تخشون من اظهار حقيقة احوال التفتيش في الهند . اما حضرة الفاحص المومأ اليه فلم يكترث بهذه الاقوال ولم يجبني بشيء بل استحوذت عليهِ سمات القلق والانزعاج والرغبة بسرعة انصرافي ثم استدركت قائلاً ايها الاب الموقر انني مزمع ان اودعكم شاكرًا احسانكم على ما ابديتموهُ نحوي من الضيافة والمنة وانني ارغب ان اذخر في افكاري تذكارًا جميلاً دائماً عن رقتكم واحسانكم فمنوا عليَّ باجابة هذا السوال فقط كم هو عدد الاسارى المسجونين الان في حبوس التفتيش فاجاب انني لا استطيع ان اجيب هذا السوال ثم هرع نحو الباب مودعاً اياي فهززنا الايدي هزًا بعادل ما سمحت لنا بهِ ظروف الحال ثم افترقنا واظن ان كلاً منا تاسف مغمومًا على مبارحتهِ لصاحبهِ بحيا تعلوهُ سحب الاعراض والصدود . اما التفتيش في غوا فباد مع الحكومة البورتوكالية التي كان في ايامها وذلك في سنة ١٨٣١

الفصل الخامس

التفتيش الحديث في ايطاليا

اننا نتقدم الان لذكر حالة الفحص الحديث في ايطاليا بكل ايجاز فنقول ان بعد اضطهاد المسيحيين (نسبةً الى يوحنا هس المشار اليهِ سابقاً) اخذ التفتيش في ايطاليا بالانحطاط مع انهُ كان قد حصل مساعٍ شتى لاحيائهِ واعادتهِ الى حالتهِ الاصلية غير انها لم تاتِ بنجاح يوازي تلك

الاتعاب. ففي سنة ١٤٨٦ قضى المفتش العام على البعض ممن اتهموهم بالبدعة بالاحراق فالبى القواد السياسيون اجراء تلك الاوامر من دون فحص تلك الاجراآت المفضي بها عليهم. ومع ان البابا اسكندر السادس تظاهر بحسن معاملة العرب عند ما طردوهم اولاً من اسبانيا فقد القى كثيرًا منهم في السجن الى ان قالوا بالديانة المسيحية واعترفوا بما كانوا قد اصروا عليهِ من البدع وصاروا اهلاً للقبول في الكنيسة والانضمام اليها وحينئذٍ مشوا الى كنيسة القديس بطرس في ثوب الساميينيتو المعهود اذ فازوا بالبركة البابوية. اما البابا ليو العاشر فحرم انتشار كل الكتب غير المصادق عليها من المفتش القائم بالفحص عن التاليف المبتدعة. ثم بعد احراق لوثيروس المنشور البابوي امر البابا الموما اليه باتخاذ الاجراآت الصارمة ضد المبتدعين حاثمًا على الحكام والروساء بتنفيذ اوامر الكنيسة تنفيذًا خاليًا من الاستقلال اي انهم يجرون اوامر التفتيش اجراء مبنيًا على عدم الفحص والتدقيق والاطلاع على شيء من اعمالهِ كانهم آلةٌ في يدهِ للانتقام من مخالفيها. واما البابا بولس الثالث وهو نفس البابا الذي دعا مجمع ترانت فاصدر امرًا باحياء طغمة التفتيش على كيفية جديدة مسميًا اياها جماعة التفتيش المقدس غير ان اسبانيا كانت مستثناة منها استثناء خاصًا فاجرت فحصًا مدققًا على الكتب باسرها (ما بال الديانة الرومانية تخشى اختشاء هذا مقدارهُ من حرية الافكار والمعارف) وافرغت من كنانة العقابات المالية والشخصية على كل من يخالف نظاماتها ما يضيق عن ذكرهِ المقام فكابد كثيرون من المسيحيين الممتازين بالمعارف والقائلين بتعليم الاصلاح عذابات جمة لرسوخهم على المبادي الانجيلية والتصاقهم بها منهم اونيو باليارو اشتكوا عليهِ عند ارتقاء بيوس الخامس الى السدة الحبرية بتاليف رسالة كان قد نشرها يوضح بها فوائد موت المسيح وينكر عقائد الكنيسة الرومانية فقضوا عليهِ بالشنق والاحراق سنة ١٥٧٠ ومنهم توما رينولدوس رجل انكليزي كان ممن اصماهُ نبال شحناتها واضغانها لانهُ بعد ان كابد عذاب

النورح ادركتهُ المنية في السجن . اما البابا غريغوريوس الثالث عشر فرخص لليهود بالتوطن في رومية الا انهُ ارغمهم على استماع العظات المتجهة ضد عقائدهم الخاصة والبابا سكيستوس الخامس عضد اجراآت التفتيش على ارباب فنون الشعبذة فالتزم رعاة الكنائس المختلفة تحت حبريتهِ باذاعة منشور التفتيش العمومي وبارسال اخبار شهرية الى المفتش العام وبالمحافظة على الكتمان الكلي وعدم اجابة شيء من الاسئلة المتعلقة بمصالح تلك الطغمة التفتيشية وتجنب اعلان ما استترمن اخبارها والاباء من اجابة كل الرسائل المختصة باسرى التفتيش ان لم يحصلوا على رخصة خصوصية من البابا

ان سطوة تلك الطغمة المهولة لم تكن اشد ضررًا وشومًا على تقدم الديانة الحقيقية في ايطاليا مما كانت على العلوم والمعارف من ذلك قصة غاليلوس المشهورة . لان هذا العلامة كان مدرس الهندسة في فلورنسا مشيدًا دعائم الفلسفة الطبيعية والجغرافيا ولاسيما علم الهيئة فبعد اكتشافهِ التيلسكوب الذي اوضح بواسطتهِ عن ظواهر كوكب الزهرة واقمار المشتري وكلف الشمس قال براي استرخس المكرر من كوبرنيكوس المبني على المبدا النيوطوني الراسخ القائل بدوران الارض حول الشمس . اما اليسوعيون والدومينيكيون فلم يحسبوا هذا المبدا المذاع من غاليلوس الافتراء وتجديفًا على نصوص الكتب المقدسة وقد جهلوا او تجاهلوا بان الكتاب الالهي انما هو موحى بهِ رحمةً منهُ تعالى طبقًا للمتبادر من اصطلاح البشر وفهمهم وان الخالق العظيم اذ راى عدم امكانية ادراك ما يقولهُ ما لم يتنازل الى الضعف الانساني استعمل من كرمهِ نفس الاسلوب المالوف عند عبادهِ والشائع بين اكثرهم شيوعًا اغليًا وقد فاتهم ان استعمال الباري سبحانهُ الطريقة الدارجة المعروفة عند العموم عوضًا عن الالفاظ العلمية لا يناقض صحة الاسفار المقدسة او يضاد مباديها كما ان اعتقادنا بحركات الافلاك والكواكب وتاريخها اعتقادٌ مبنيًا على المبادي العلمية

الراهنة ولو كان لا يطابق في ظاهر الحال لصريح عبارة الكتاب الالهي لا ينافي صدقها وحقانيتها . فاشتكوا على غاليلوس الموما اليهِ الى التفتيش سنة ١٦١٥ واتوا بهِ الى رومية فامرهُ الكردينال بيللارمين متهددًا اياهُ بالسجن بجحد ذاك المبدا القائل بهِ وعدم اذاعتهِ ايضًا فاجاب ايجابًا واعدًا بالطاعة انما عن سرعة وعدم تبصر لانهُ كان من المغرمين بالاداب والمعارف وعلى غاية من الاقتناع بصحة هذا المبدا فلم يتمالك من المحافظة عليهِ واذاعتهِ انما بكل حذر وانتباه ظانًا انهُ بهذه الواسطة ينجو من اللوم وسوء العواقب . فنشر حينئذٍ كتابًا يحتوي على محاورة بين انسان معتقد بالنظام البطليموسي واخر قائل بالتعليم الكوبرنيكي وثالث مرتاب متردد بين الامرين ثم طلب من ناظر البلاط المقدس في رومية الاذن باذاعتهِ. فلما شاع وتداولهُ الناس تعجبوا كل العجب واضطربوا كل الاضطراب من هذه الاراء الحديثة وحملوا البابا اوربانوس الثامن على الاعتقاد باحتواء الكتاب المذكور شيئًا من الهزء والسخرية عليهِ فاعترى غاليلوس كل الرعب والارتعاد وصار طريح الفراش . اما طغمة التفتيش فصرحت ببدعة كتبهِ ثم قضت عليهِ بحدود بيعية فحملهُ التهديد والارغام الشديد على ان يجثو على ارض قصر البابا ويقسم بالاناجيل على جحد اضاليلهِ مع ان ذلك كان على غاية من المضادة لمبادئهِ الادبية قيل انهُ لما نهض من هذه الحالة الذليلة داس برجلهِ الارض قائلاً بصوت منخفض باللاتينية ما معناهُ لكنها مع ذلك تتحرك وحينئذٍ اذ راوهُ قد جحد اراءهُ علنًا خفضوا قصاصهُ وارسلوهُ الى دير عوضًا عن السجن القبيح وهناك قضى بقية حياتهِ الى ان ادركتهُ الوفاة

ان من الشواهد الحديثة على سجن التفتيش الايطالياني قضية كاترينا ايڤان وسارهُ شيفرس من طائفة الكويكرس المشار اليها سابقًا اللتين سجنتا في مالطة الى ان هزلت اجسامها وتحللت تحولاً يحاكي الرقوق اليابسة وسقط شعر راسيهما من طول مدة اسرهما وقذارة سجنهما الحرج . وقصة

ارشيبالد بوير السكوتلاندي من قد قرر عن نفسهِ بانهُ كابد عذابًا اليمًا من التفتيش (مع ان البعض من تقاريرهِ قد تناقضت بعد وصولهِ الى انكلترا) جديرة بان يشار اليها بالذكر. اما الماسونيون او السياسيون كما كانوا يسمونهم فكانوا قد كثروا في نحو اواسط الجيل الثامن عشر فلم يالُ التفتيش جهدًا من تبديد شملهم وتشتيت مراكزهم. ثم في سنة ١٧٨٢ الغى اخيرًا فرديناند السادس ملك سيسيليا التفتيش من بلادهِ

ان كلامنا الان يتجه الى زمان استيلاء العساكر الفرنساوية على رومية سنة ١٨٠٩ اذ حصلت ملاحظة احوال السجون وابطال استعمالها قصاصًا ناتجًا عن قوة التفتيش واحكامهِ فاستنتج الناس ان ديوان الفحص كف عن كونهِ مجلسًا قائمًا بقصاص البدعة والجنايات الاخرى العامة واقتصر على مجرد التبصر بالذنوب المرتكبة ضد الشرائع البيعية. الا انهُ في سنة ١٨٢٠ في زمان حبرية البابا ليو الثاني عشر (اذ تواري نابوليون بونابارت في ضريحهِ في جزيرة القديسة هيلانة) برزت السجون عائدةً مرة اخرى الا انهُ الى غير ما كانت عليهِ لانهُ حصل بها وقتئذٍ بعض اصلاحات مهمة من جهة فتح النوافذ لدخول الهواء والنور. ولم يعد التفتيش الايطالياني اذ ذاك مطمحًا لابصار العموم الا نادرًا الى ان نبهت الثورة الحديثة في ايطاليا افكار العالم الى معرفة حقيقية وجوده رغمًا عما حاولوا كتمانهُ من هذا القبيل على ان كل من تمعن يشاهد بروجهُ المشيده اخذةً في الانخفاض والدثار عند حضيض الفاتيكان وكنيسة القديس بطرس في رومية

فلما قرر راي المجلس العالي على الغاء طغمة التفتيش سنة ١٨٤٩ عولوا على جعل هذا الصرح خزانةً للمدافع والاسلحة الحربية ومن ثم حصل بهِ تغييرات جمة عثروا بها على اكتشافات مهمة. ولم يكن في تلك السجون وقتئذٍ الا اسيران وهما اسقف وراهبة اولهما كان مسجونًا منذ عشرين عامًا لانهُ سام اسقفًا زورًا بتشخيصهِ انسانًا اخر عوضًا عن الشخص الحقيقي واما ذنب الراهبة فكان مجهولاً. وقد اكتشفوا في احد الاقبية على كثير من

العظام الانسانية بدون جماجم ممتزجة بالكلس فانية من فاعليتهِ لم ترفع عن الارض الاَّ وانتثرت منحلة الى الرماد وقد عثروا في هذا الكهف نفسهِ على جماجم شتى ليست بفانية فهذه العظام والجماجم كانت متناسبة مع بعضها كل التناسب . قال احد الايطاليان المهاجرين انهم كانوا يدفنون الاجسام الى الاعناق في الكلس فكانت تتجرع الشهداء والحالة هذه كاس المنون خنقاً في العذاب ثم تنفصل بعد ذلك الرووس عن الاجساد وتتدحرج على الارض . على انهُ ربما لا يجب ان نجزم بصحة هذا المقال الاَّ ان هذه المعاملة تطابق كل المطابقة اجراآت اخرى اكيدة وقد القوا في قبو اخر كمية جزيلة من تراب ذي تركيب غريب يحاكي ما نراهُ في قبور الكنائس الخاصة بجثث الاموات مولف من نسيج مخمل يلتصق بهِ شعر طويل يحاكي شعر النساء اكثر من الرجال . وقد وجدوا هذه الكومة التي تتقزز منها النفوس وتعافها الابصار عند حضيض احد الشقوق المتوسطة بين الدار وقاعة المفتش العام . اما تلك القاعة فكانت مفروشة فرشاً فاخراً وقد احتوت هذه الهوة على شرك منصوب تحت الارض اقتناصاً للاسرى المنكودي الحظ فكم من الذين وطئوا سطحها المغتال وانحدروا هابطين الى اعماقها ثم غابوا عن الابصار غياباً ابدياً ربما بينما كانوا يصيخون سمعاً لخطاب المفتش العذب الوداعي واذا بجوارح المنية اطبقت عليهم اطباق الكواسر على فريستها وقدمتهم ضحية للترفض الوحشي والمطامع العمياء . وقد عثروا في احد هذه السجون فضلاً عما ذكر على اتون يشتمل على بقايا ملبوسات نسائية . لا جرم ان مجرد التصور بوجودهِ والغاية الخبيثة المقام لاجلها من شانهِ ان يفعم المتمعن كابةً تخفق لها القلوب وترتعد لها النفوس . وقد اكتشفوا في بعض الاغوار القديمة عبارات مكتوبة منها ما ياتي قد اصبحت مسجوناً هنا من دسائس الواشين الكاذبة ولم يرخص لي بمناولة القربان المقدس ومنها ازل عني الظلم يا الله وايضاً اه لعوائد هذا الزمان . فوقها رسم انسان مائت وعظام منحنية ومنها باللغة الانكليزية اهذا

هو الايمان المسيحي . وقد فحصوا ما عثروا عليهِ من الاوراق وقتئذٍ فوجدوها مفعمة من اقوال السفاهة وفساد الاداب ما يسوّد وجه القرطاس ويضيق عن شرحهِ المقام على ان الاعتقاد الشائع هو ان السجلات والكتابات المهمة احترقت حالاً بعد فرار البابا من رومية . اما السوال الجوهري لمطالع هذا الكتاب وهو اخذ بالاقتراب من ختامهِ فهو هل ان هذه الطغمة المسماة بالتفتيش المقدس لا تزال باقية الى الوقت الحاضر ام لا اننا قد اشرنا الى البراهين والادلة المقامة من الاخصام للمدافعة عن دوام ديوان الاعتقاد وتبرئتهِ غير ان تلك الاحتجاجات تحتاج الى الفحص المدقق واطالة النظر ولا سيما لانها اذيعت في بعض جرائد هذه الايام الحديثة بالوقاحة والقلم العريض . ولقائل ان يقول ناهيك ما بالبدعة من الذنوب الفظيعة وما من شانهِ ان تولدهُ من الشرور الجسيمة وان بمقدار سمو الايمان الصحيح عما سواهُ وكونهِ مصدر الاعمال الفاضلة كافة بمقدار ذلك الاعتقاد المنحرف عن محجة الصواب هو اصل الفساد وجرثومة القبائح وان مصالح الهيئة الاجتماعية وليس الافراد فقط استئصال التعاليم المبتدعة . اما نحن فنحيب ان لا احد يميز حقائق الامور من الانجليين الاَّ ويسلم بقباحة الضلال ولا سيما الضلال الديني وان مفاعيل البدع من الافات العظمى على سعادة القوم قاطبةً غير ان الله القدير نفسهُ اطال اناتهُ محتملاً عصيان البشر عبيدهُ وتمردهم ولم يستاصل الشر من العالم بالوسائط المادية الخارجية المبنية على العذابات الجسدية موصياً شعبهُ بالسلوك على نفس هذا السراط واستعمال تلك القوة السامية الموطدة على اقناع الفضائل والجودة واللطف فمن ثم ادعاء كنيسة رومية او التفتيش المشخص روحها بسلطة وسيادة لم يمارسها القدير سبحانهُ في هذا العالم الامتحاني ليست الاَّ ضرباً من الحماقة الكلية ولا خفى ان غاية الباري جل جلالهُ باجراء العقاب والثواب على اعمال البشر واعتقاداتهم انما تقوم في العالم الآتي وليس في هذا الكون الاستعدادي لان ليس للانسان من الفراسة والذكاء ما يمكنهُ من التشريح

الروحي والتعمق في الفحص ولاحكمة توازن ما يستلزمهُ انفصال الحق عن الضلال من الدقة والتبصر اذ باستئصال الزوان يقلع معهُ القمح ايضاً . فعلى ذلك تشخص الكنيسة الرومانية ما تعتقد بهِ من المبادي ثم تقضي عليها بتصرفاتها ونظاماتها لاجرم انها استاصلت من الخير ما يفوق جداً على الشر كيف لا والشهادات المروية عن اعظم المصادر الموثوق بها من جهة اداب اولئك القضاة انفسهم تحتوي كل الطعن والقدح على سيرتهم وما الحقوهُ بالجنس البشري من الاضرار والافات . لان التاريخ والعلوم والمعارف والديانة تقوم بتقديم ما لايحصى من الادلة الراهنة عما اجرتهُ الديانة الرومانية من الخراب والتدمير وعما كانت لاتنباطا عن توليدهِ من الشرور الفائقة مما سبق ذكرهُ لولا معارضة قوة عليا ساوية وعدم سماحها لها بالتمكن من اعمال صوارم مبادبها وتنفيذها تنفيذاً تاماً . قيل ايضاً ان التفتيش كان ركناً عظيماً للسلام وانتظام الاحوال وانهُ قد كان في اثناء الثلاثة الاجيال الاخيرة بواسطة اجراآتهِ من السلام والسعادة في اسبانيا اكثر مما يوجد الان في البلاد الاوروبية فنجيب ان صح كون السكون والهدو دليلاً على رفعة الشان الادبية فالعبودية المطلقة اذن والموت الحقيقي من السندات القاطعة على صحة ما ذكر فنضطر والحالة هذه للالتجا الى احدهما او كليهما للحصول على الغاية المطلوبة . نعم ان التفتيش اتى الى اسبانيا بالسلام انما بسحق قوتها ودك صناعاتها وفنونها وكسف شمس معارفها وادابها وتدمير حريتها ولا تزال الى الان تعاني قصاصات تلك الازمنة المهولة . قال احد المولفين الوثيقين انكم تصيرون المكان قفراً موحشاً ثم تسمون ذلك سلاماً ولقائل ان يزعم ايضاً انهُ مهما كانت قصاصات التفتيش قاسية فليست باردا من قصاصات المجالس السياسية الاخرى الانقرا في تاريخ انكلترا مثلاً عن خنق امراة ثم احراقها امام باب الدابن في مدينة نيوكيت لاجل سك الدراهم المزيفة سنة ١٧٨٩ وعن استعمال العذابات المتنوعة في سكوتلاندا للوقوف على حقيقة تقارير المتهمين بالذنوب غير

انهُ لا يخفى على فطنة القاري سخافة هذه الحجة وبطلانها ليت شعري اليس للديانة المدعية بالمسيحية والمفتخرة بالانتساب الى ذاك الفادي الحنون نبع الرحمة والمحبة وشمس الفضيلة والطهارة اسوةٌ افضل من الاستناد الى تلك القصاصات الوحشية المخترعة في اجهل الاعصار واشدها ظلمةً واليس لتلك الديانة المامورة بتعليم البشر وتهذيبهم على تلك الحقائق والمبادي الالهية السامية مندوحة عن ممارسة تلك القساوة الهولة والتدمير الفظيع كيف لا وقد اجرتها في الاعصار الحديثة حينما كانت تلك العذابات السياسية قد اضمحلت وتلاشت مع انهُ قد كان من واجباتها اقامة الحجة باسم المسيح على تلك الاعمال الصارمة وليس اهاجة دواعي الغيظ والانتقام وتنفيذ تلك الاجراآت البربرية المتولدة عن تلك النظامات المشار اليها فقد احسن مخلصنا بقولهِ لذينك التلميذين اللذين تحركا من الغيرة الكاذبة وطلبا الانتقام من اولئك السمرة رافضيهِ لا تعلمان من اي روح انتما لان ابن الانسان لم يات ليهلك انفس الناس بل ليخلصها لاجرم ان الجهل ورفض المسيح ربما كانا يصلحان لان يكونا عذرًا لذينك فما عذر هولاء وهم يحرقون المومنين بالمسيح والانجيل بين ايديهم وشرائعهُ الطاهرة تامرهم بمحبة الاعدا والصلاة من اجلهم

ان الاخصام طالما قد تجاسروا على نكران استمرار القوة التفتيشية الى هذه الايام اما نحن فلا نستغرب هذا المقال لان كثيرين ينكرون ذلك عن خلوص طوية وسلامة قلب لان طغمة التفتيش لا تنفك عن تبليغ تقارير زورية كهذه لكل من استنار لهُ بمصباح البصيرة وانوار المعرفة والتمعن ولا نتمالك من الظن بان كل روماني كاثوليكي تقي يعتقد بان ما سلف ذكرهُ من الكبائر قد صار من اعمال امس الغابر مضمحلاً اضمحلالاً ابديًا من كنيستهِ المحبوبة . فلا يتعجبنَّ القاري مما قيل لان من بحث عن الحقيقة يرى ان المتفقهين في نواميس كنيستهم وتراتيبها من الرومانيين الكاثوليكيين العوام او من الاكليريكيين انفسهم والمتعمقين في معرفة المبادي والفروع

المنتظمة عليها تدابيرها انما هم قليلون جدًّا بالنسبة لجاهلي حقيقة ذلك فان تمكننا من ان نحكم عليهم حكمًا مبنيًّا على دستور معرفتهم الحالية خلوًا من الالتفات الى السوالات السابقة ومن ان نلاحظ قصور معرفتهم من هذا القبيل لحملنا ذلك على الشفقة والاسف وليس على الملام والطعن الاَّ اننا نعود ونسال هذا السوال الجوهري قائلين ليت شعري ان كان التفتيش قد صار من المبادي المطروحة في زوايا الاهمال والنسيان والملقاة فيما بين اقذار الاعصر المظلمة المستهجنة والمحسوبة نظامًا يضاد روح الكنيسة الرومانية بمقدار ما هو مكروه من حاسيات الانجيليين فلماذا لم تجدد المنشورات البابوية والجوامع الحديثة وجودهُ وتشجبهُ شجبًا يحاكي وقاحة تصريحها بهِ في الازمنة السالفة . وما بال هذا الجناح الحاضن الذي فقست تحتهُ هذه الدجاجة الرنقاء افراخها يفتخر بالعصمة وعدم الخطاء وما بال الانوف تراكيبهِ لاتزال حية بعد مع زوال نفس هذا النظام وانتشارهِ كالهباء بحسب مصادقة احساسات هذا العصر ولماذا لا ينفك الرهبان الدومينيكيون عن كونهم محافظي التفتيش والحبر الروماني كالاَّ لهُ وما بال الاضطهاد الغابر يتوقد مشتعلاً كلما هبت رياح السلطة المطلقة واضرمت لهيبهُ فلا بدع والحالة هذه ان استحوذ الانذهال والاكدار على كل محبي الكتاب المقدس المعلن والديانة المبنية على الحرية والحق وليس هذا فقط بل ليتامل اولئك الزاعمين اضمحلال الطغمة التفتيشية بما تصرح بهِ تقارير الرومانيين الكثوليكيين انفسهم نقتبس منها الجملة الاتية دستورًا للبقية . وهي انني لا ارتاب مطلقًا بان ديوانًا من هذا النوع منظمًا على كيفية ملطفة موافقًا للزمان والمكان وروح الامة من شانهِ ان يكون على غاية من الافادة في كل مملكة فهذا المقال مروي عن مولف كاثوليكي يوثق بهِ كثيرًا في ظاهر الحال . على انهُ يوجد محل للاعتقاد بوجود جرثومة ديوان تفتيشي حتى في البلاد الانكليزية ولا يغرب عن التصديق ان الرياسة البابوية لا تلبث ان تاتي اليها كما الى بلادنا هذه السورية بجميع انواع الظلم والاجراآت السرية

وربما بسائر اهوال التفتيش الخبيث وافاتهِ لو تمكنت من الوصول الى المرغوب ولولا انهُ يحول دون ذلك من القوة السياسية وانوار المعارف ما يشل تلك اليد الغادرة ويدك قوتها الفتاكة فالنتيجة هي بالقلم العريض

ان التفتيش متوقف الا انهُ ليس بمتلاشٍ ان الوقود معد انما يحتاج يدًا جسورة كي تقدح الزناد لاضرامهِ

فليحفظ الله القدير برحمتهِ كل البلدان البروتستانتية وسائر تابعي الحق من اهوالهِ وضيقاتهِ الكامنة والان نختم هذا الكتاب ببعض ملاحظات مختصرة عما قررنا عنهُ من النظام التفتيشي فنقول اننا لانستطيع ان نفصل عن تصوراتنا ذلك الديوان المهول من مشاركتهِ مع التعاليم البابوية نفسها وتدابير تلك الكنيسة وروحها وصفاتها لان تلك الآفة العظمى لم تأتِ الى الوجود الاَّ باقترانها مع المبادي الفاسدة المبنية على الاضاليل المريعة . لاجرم ان هذه الطغمة التفتيشية تطابق كل المطابقة الديانة المستأسرة افكار شعوبها في قيود العبودية التامة والخضوع الارغامي لسلطة الاكليروس وقد سبقت وحرمت بالقوة والتهديد مطالعة الكتب المقدسة وحرية الفحص في حقائقها وليس هذا فقط بل زعمت ان الطقوس والفروض والاحتفالات والاقرارات الخارجية في الديانة المسيحية انما هي الكل وفي الكل وذلك عوضًا عن الاقتناع الداخلي الصادر من تأثير الكلمة الالهية في قلب من استنار باشعة بهائها وانسحق ذائبًا من فعل النعمة المصاحبة لها . لاغروان التفتيش لم يحز تلك القوة الشديدة الاَّ من اطاعتهِ المطلقة لراس واحد منظور وعدم اعتبارهِ القوات الاخرى كافةً روحية كانت ام زمنية الا في المقام الثانوي وانهُ يسمو عليها بالسطوة والاهمية مدعيًا بدعوى تتفهقر عنها كل النظامات الاخرى عدا الرومانية مشمئزة كل الاشمئزاز زاعمًا بعصمة لايقول بها الا تلك الكنيسة وحدها فحقًا لقد صدقت عليهِ نبوة الرسول الواردة في رسالتهِ الثانية الى تسالونيكي ٢ ٤

وهي المقاوم والمرتفع على كل ما يدعى الهًا او معبودًا حتى انهُ يجلس في هيكل الله مظهرًا نفسهُ انهُ اله . فاين الديانة الانجيلية مهما زعم الاخصام ضلالها وقصورها (لا فرق لانها جميعها حرة) من هذه الصفات والاعمال الشريرة واين من يروي عنها ارتكاب اساآت مبنية على اسلوب نظامي كالديانة المرموز اليها بالتفتيش . لاجرم ان هذا الرمز ليس من الامور العرضية او الوهمية بل انما يشتمل اشتمالاً حقيقيًا على السفه والمكر والخطف والفحشاء والرداءة والويل والعذاب والدم وكلها هو مرعب وممقوت في الحاسيات البشرية . فما اشد هول التامل بان التفتيش انما كان عدوًّا الد للديانة عند كثيرين من ارباب الافكار الرائقة المصيبة وكم من الذين استقوا (ما توهموهُ من) الاراء السامية عن القداسة والجودة والقوة والرحمة من هذا الينبوع الدموي السامّ وقد عاشوا وماتوا على هذه المبادي الفاسدة قال لورانت ان توركويمادا لم يولد الا ليصير الديانة معابة ومهانة حقًا لقد صدق عليهِ فيا للحزن والاسف على ما رزئت بهِ تلك الكنيسة من البلاء وكم من الذين لم يكونوا يتشخصون الديانة المسيحية تشخيصًا وحيدًا منظورًا الاعدوًّا الد ينفرون منهُ ويستهجنونهُ من صميم افئدتهم ويرونهُ من مراة التفتيش ويحاولون الفرار من مخالبهِ . ليت شعري كيف كانت العلاقات المنزلية والوطنية الموطدة على نظام كهذا الديوان لان المامها ودرايتها وشعورها لم تصدر الاعن فرض وعنف ومعاملة سيئة واحتجاجات تخيفة كالتي سلف ذكرها . ترى كيف كانت حالة الازواج والوالدين والاسياد والملوك والحكام الذين تربوا تحت سطوتهِ وشبوا في زمان سيادتهِ فلو قام التفتيش بتشخيص الهيئة الاجتماعية في عصرهِ فقط لكان من الامور المرعبة المهولة فكيف بهِ وقد كان الواسطة لتوليدها والاخبار عنها اما تتضاعف والحالة هذه ويلاتهُ . فهل نعتبر الديوان التفتيشي اذًا واسطةً يرجع بها الخاطي الضال الى الهِ ومخلصهِ طالما الف السمع في سياق التكلم عن التفتيش كلمة الرجوع او التوبة الا ان تلك الكلمة بعيدة بمراحل عن

صحة معناها الاصلي في الديانة المسيحية المقصود بهِ تذويب النفس واجتذابها الى الله بفعل الروح القدس . فان اعتبرنا كلمة التوبة والرجوع الى الله اعتبارًا مبنيًا على ذاك المعنى فانما نكون ارتكبنا خطاءً جسيمًا ترتعد لهولهِ الفرائص نظرًا لما يحتويهِ من الازدراء والاستهزاء على الديانة والتحريف والافتراء على الحق . ومع هذا كلهِ من واجباتنا الشكر للعناية الالهية لان قيمة المعدن لاتظهر الا بعرضهِ على النار اما الله فبحكمتهِ وعدلهِ حتم بارتفاع شان الديانة وسموها بحيث لا يمكن الوصول اليها وصولاً حقيقيًا من دون مكابدة مشقات وجهاد عظيم . اننا ننقهقر عن البوتقة انما نستملح الذهب المسبوك بها لان رومية وتفتيشها اشتغلا باظهار الحقيقة بالمقابلات المتضادة وهذا العدو الروحي قد كان في اليد الالهية صديقًا حقيقيًا وهذه الافة التي شوهت جمال الاوراق قد زادت الثمر . ان اعظم كل حجة مقامة على الخرافات البابا وية انما هي نجاحها لان الضلال يموت بحياتهِ واما الحق فيحيا بموتهِ ومن شان اضاليل بدع الكنيسة الرومانية ان تحمل اشد تابعيها تعصبًا على الاشتباه بدستور ايمانهِ وعقائدهِ ومن شان مقاصدها الخبيثة ان تصير الاشد تشبثًا بها ان ينكرها

فلا نتكلنَّ اذًا نحن الانجيليين اتكالاً كليا على قوتنا المادية او السياسية لان شرف النسب وكثرة العدد وسمو المركز وامتداد السطوة لاتنقذنا من الاخطار لان الضرر الصادر من البابا وية المحاربة بالدسائس والاحتيال والمكر اعظم مما هو من البابا وية المحاربة بالاضطهاد والاحراق لاجرم ان المد والجزر الصادم الشطوط صدمًا هادئًا خفيفًا يوثر بها تاثيرًا اشد من الامواج الطامية المتهددة اياها بالاغراق . اما تحصن الانجيليين وامانهم فانما يقوم بغلبة الحق الانجيلي لان متاريس المومن ومعاقلهُ الحقيقية انما هي الاستناد على المخلص المصلوب المدرك بالايمان والروح القدس المطلوب بالصلاة والاتيان بالقلب الفاسد منذ ولادتهِ الى مماسة تلك القوة الابدية غير المنظورة واصلاح الطبيعة الادبية الداخلية وليس الخارجية فقط

وانتشار كلام الله المقرر على صفحة سيرتنا والمجد بحياتنا وسلوكنا . فهذه هي الصروح والابراج الباذخة التي تؤمنا من هجمات الاعداء واغتيالهم مع انها بمعزل عن الارغام والاجبار بل انما هي معروضة مجاناً على كل من يشاء التمتع بجنانها الحسناء وسعادتها الدائمة فلنحترز اذن من الديانة القائمة بمجرد الطقوس والعبادة الخارجية وان كنا امناء نحو انفسنا وايماننا فينبغي ان ننصب تفتيشاً ضمن قلوبنا متخذين يسوع المسيح راسنا الروحي وكلمته شريعتنا المنيرة والضمير فاحصنا القوي والعزم الشديد على اماتة الخطية مثقفنا الفعال وليكن هذا النظام جميعهُ خارقاً الى احشائنا وممتزجاً بمحبة الله وليس بمجرد الجزع او الخوف

من غضبهِ

BRIEF
BR
0008201